قضايا سياسية

اسم المقال: سؤال الحداثة في الفكر السياسي العربي المعاصر : محمد سبيلا إنموذجاً
اسم الكاتب: م.د. عمر حمدان
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/1557
تاريخ الاسترداد: 2026/06/06 03:35 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة – Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة – Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة قضايا سياسية الصادرة عن كلية العلوم السياسية في جامعة النهرين ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

سؤال الحداثة في الفكر السياسي العربي المعاصر: محمد سبيلا إنموذجاً

م.د. عمر حمدان(*)

الملخص

تعدَّ الحداثة من أهم القضايا المعقدة التي اهتم بها الفكر السياسي بصفةً عامة، والفكر السياسي العربي المعاصر بصفةً خاصة ، إذ اهتم الكثير من المفكرين والباحثين العرب بسؤال الحداثة وكان شغلهم الشاغل ومدار بحثهم ، وكان في مقدمة هؤلاء المفكرين العرب محمد سبيلا، إذ أتخذ سبيلا من الحداثة مذهباً فكرياً يسعى من خلاله إلى تحديث الفكر العربي ورفض الواقع المُعاش.

Abstract

Modernity is Considered one of the most Important Complex Issues that Political thought Concerned in General, and Contemporary Arab Political thought in Particular, as many Arab Concepts and Researchers were Interested in the question of Modernity and their Concern and the focus of their research was, and at the forefront of these Arab thinkers Muhammad Sabila, as he took Sabila of Modernity An Intellectual Doctrine through which it Seeks to Modernize Arab thought and Reject lived Reality.

المقدمة

تُعدَّ الحداثة مذهباً فكرياً يسعى إلى تحديث المجتمع ورفض الواقع الراهن, بوصفها سلسلة إصلاحات فكرية تشمل المجالات كافة , إذ تُعدَّ الحداثة من أهم الإشكاليات التي اهتم بها الفكر السياسي المعاصر بصفةً عامة , والفكر السياسي العربي المعاصر بصفةً خاصة , إذ اهتم الكثير من المفكرين والباحثين العرب بسؤال الحداثة , وكان شغلهم الشاغل ولاسيما بعد منتصف القرن المنصرم ، وكان في مقدمة هؤلاء المفكرين محمد سبيلا(*).

(*)الجامعة المستنصرية – كلية العلوم السياسية

(*) محمد سبيلا : كاتب ومفكر مغربي ولد عام 1942 في الدار البيضاء ، درس في كلية الأداب والعلوم الإنسانية في الرباط ، وحصل منها عام 1967 على الاجازة في الفلسفة ، كما درس فيما بعد في جامعة السوربون في باريس وحصل منها في عام 1974 على دبلوم الدراسات العليا ، ومن ثمَّ نال دكتوراه الدولة في الفلسفة من كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط عام 1992 ، عمل استاذاً جامعياً في كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط ، ثم شغل منصب رئيس قسم الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس في كلية الآداب

إذ اختار سبيلا الحداثة كنهج فكري صريح له منذ تنظيراته الأولى في الفكر السياسي العربي المعاصر إلى يومنا هذا ، ومن ثمَّ فإن الحداثة هي بمثابة الخيط الرابط لجلّ مؤلفات محمد سبيلا وفي مراحله الفكرية كافة ، وهي تبدو لجلّ المهتمين بالفكر السياسي العربي المعاصر بمثابة المرتكز الأساس التي يدور فكره عليها .

كما أن للحداثة تجليات ومقولات عدّة لدى محمد سبيلا منها سياسية واقتصادية وإجتماعية وثقافية وغيرها, وسنركز في بحثنا على التجليات السياسية للحداثة الفكرية, والتي تتجلى بالديمقراطية وحقوق الإنسان والايديولوجيا والعلمانية والحرية والعولمة.

وقد قُسم البحث إلى محورين رئيسين ناقش الأول منهما (ماهية الحداثة عند محمد سبيلا) ، في حين عالج الثاني منهما (المقولات الفكرية للحداثة السياسية عند محمد سبيلا).

اولا :ماهية الحداثة عند محمد سبيلا

تعدَّ إشكالية الحداثة من أهم إشكاليات الفكر السياسي العربي المعاصر, ولذلك اهتم سبيلا كثيراً بهذه الإشكالية ومفهومها ونشأتها وفكرتها ومظاهرها في الكثير من المؤلفات التي اختصت بهذا الموضوع , إذ اهتم كثيراً بتبيان هذا المفهوم بشكل دقيق , وأبعاده عن الخلط واللّبس مع المفاهيم ذات الصلة به كالتحديث والحداثة البعدية وما بعد الحداثة وما شابه ذلك من المفاهيم .

كما عُني كثيراً بالمصدر الذي نهلت منه الحداثة العربية الاَّ وهو الحداثة الغربية.

وقد قُسم المحور إلى أربعة فروع رئيسة الأول منها (مفهوم الحداثة والمفاهيم ذات الصلة بها) والثاني منها (الأسس الفكرية للحداثة) والثالث منها (جغرافية الحداثة) والرابع منها (مظاهر الحداثة).

أولاً : مفهوم الحداثة والمفاهيم ذات الصلة بها

بفاس ما بين عامي1972 و1980 ، كما ترأس الجمعية الفلسفية المغربية من عام1994 لغاية عام 2006 ، له الكثير من المؤلفات المهمة أبرزها " مدارات الحداثة : مقالات في الفكر المعاصر ؛ المغرب في مواجهة الحداثة ؛ النزعات الاصولية والحداثة ؛ الحداثة وما بعد الحداثة ؛ دفاعاً عن العقل والحداثة ؛ للسياسة بالسياسة ؛ زمن العولمة : فيما وراء دوائر الوهم ؛ في الشرط الفلسفي المعاصر " وغيرها من المؤلفات ، كما ترجم عدداً كبيراً من المؤلفات المهمة بالاشتراك مع د. عبد السلام بنعبد العالي أبرزها " الفلسفة والسياسة لالتوسير ؛ نظام الخطاب لميشيل فوكو ؛ الأسس النفسية للتحليل النفسي لاسون " وغيرها الكثير من المؤلفات والنصوص المتعلقة بالحداثة والمعرفة والثقافة واللغة وحقوق الإنسان . للمزيد من التفاصيل ينظر : حوار مع المفكر المغربي محمد سبيلا : في سبيل حداثة فكرية ، حاوره : محمد الشيخ ، مجلة المستقبل العربي ، العدد(424) ، بيروت ، حزيران ، 2014 ، ص137؛ عبد الرحيم العطري، حوار مع المفكر المغربي الدكتور محمد سبيلا ، الحوار المتمدن ، العدد(1202)، 2005/5/19.

أ- مفهوم الحداثة[*]: قبل البدء في التطرق إلى مفهوم الحداثة وتفكيك هذا المفهوم يجب علينا أولاً رفع اللّبس بين مفهوم الحداثة وواقعها ، فالحداثة بمفهومها هي جملة التحولات التي حدثت في أوروبا ابتداءً من القرن الخامس عشر، والتي تشهد عليها معالم فكرية وعلمية وتاريخية كبرى : أحداث كالإصلاح الديني، ثورات فكرية كالثورة الفرنسية؛ اكتشافات علمية كاكتشاف كروية ودوران الأرض ، فضلاً عن اكتشافات فكرية أخرى، ومن ثمَّ فإن الحداثة هي كل تلك السلاسل من التحولات التاريخية التي حدثت في الغرب، فالحداثة الغربية هي الحداثة المرجعية أو الحداثة الام ، زيادةً على هذه الوقائع المتعددة التي ظهرت في الغرب أولاً ، والتي امتدت على امتداد زمني يتجاوز الأربعة قرون على بقعة جغرافية شاسعة هي أوروبا الغربية أولاً ومن ثمَّ أمريكا في رحلة لاحقة في القرنين التاسع عشر والعشرين، واليوم اصبح العالم كله مسرحاً للحداثة ، فاتساع المفهوم من جهة واتساع التحولات التي شملتها الحداثة تزيد المفهوم ضبابية ، ولكن الذي يزيل هذه الضبابية شيئاً ما التمييز بين الحداثة كواقع وبين الحداثة كتحولات فكرية مهمة، ومن ثمَّ فأن مفهوم الحداثة يعني هذه التحولات المذكورة بمجملها، وان لهذه التحولات تجليات رئيسة على المستويات كافة [1].

وبالعودة إلى مفهوم الحداثة ، فإنه لا يوجد مفهوم جامع مانع للحداثة شأنها شأن الكثير من المفاهيم التي تعنى بالدراسات الإنسانية ، فضلاً عن ان محمد سبيلا لا يعنى كثيراً بمسألة المفاهيم، إذ نراه يدخل لمناقشة الإشكالية المراد البحث عنها مباشرةً ومن دون ممهدات ، وعلى الرغم من هذه الصعوبة

---

[*] مفهوم الحداثة : هناك جملة من التعريفات للحداثة من ابرزها تعريفها على انها "حركة ترمي إلى التجديد ودراسة النفس الإنسانية من الداخل معتمدة في ذلك على وسائل فنية جديدة" ، كما تعرف على إنها عقيدة قائمة على العلم بالقول انها " دين أو معتقد يشتق من نظرةٍ تؤمن ان البحث المعاصر أو العصري وروح التقدم العلمي تتطلب الانعتاق بشكل جذري من المفاهيم القديمة والوسيطة " ، في حين تعرف ايضاً بوصفها تياراً عقلانياً بالقول انها " تيار جديد من الكنيسة المسيحية كان اكثر استجابة للتيارات العقلانية، ويوصف الشخص الحداثي بانه الشخص الاكثر استجابة لمعطيات الحضارة الحديثة" ، كما يعرفها باحث عربي بالقول: "هي ميل التفكير الذي أكد على دور القوة والإرادة الإنسانية في تحسين أو إعادة تشكيل محيطه الاجتماعي عبر المعرفة والتكنولوجيا والتجربة الخاصة". للمزيد من التفاصيل ينظر كل من : مالكم برادلي وجيمس ماكفارلن ، الحداثة، ترجمة : مؤيد حسن فوزي، ط1، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 1987، ص28؛ ؛ عدنان عويد، قضايا التنوير، ط1، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2011، ص63؛

Encyclopedia Americana : International right union , Edition ,Volume25,U.S.A,1980,P.311 ;

The new Webster, Encyclopedia dictionary, Under International can right, United States of America, 1965 , p .541.

[1] عبد الرحيم العطري ، مصدر سبق ذكره .

يمكن استخراج عدد من التعريفات تعود لسبيلا عن الحداثة ، إذ يعرفها بوصفها عملية ثورية شاملة على انها "ثورة مستمرة وتجاوز مستمر، وحركة إشكال لا تنتهي، واعتدامية إيجابية لا قرار لها"[2]، وفي الإطار نفسه يعرفها على إنها " تحول جذري على كافة المستويات : في المعرفة ؛ في فهم الإنسان ؛ في تصور الطبيعة ؛ وفي معنى التأريخ ، إنها بنية فكرية كلية ؛ وهذه البنية عندما تلامس بنية اجتماعية وثقافية تقليدية فإنها تصدمها وتكتسحها بالتدريج ممارسةً عليها ضرباً من التفكيك ورفع القدسية "[3]، كما يعرفها على انها "مفهوم حضاري شمولي يطال كافة مستويات الوجود الإنساني"[4] ، ويصفها سبيلا على أنها ظاهرة عقلانية بالقول " حركة عقلانية كاسحة الاّ إنها كاسحة ذات قرنين السياسة والتقنية ، انهما الجسران اللذان تمدهما الحداثة خلسة في كل المجتمعات لتتسرب إلى عمق التقليد عبر مقاييس النجاعة والمردودية"[5]، كما يعرفها سبيلا من خلال سماتها بالقول هي " ظهور ملامح المجتمع الحديث المتميز بدرجة معينة من التقنية والعقلانية والتعدد والتفتح"[6]، كما يصفها على إنها حركة فكرية تحديثية بالقول هي "البنية الفكرية التي تولدت عن عملية التحديث وتجارب التحديث التي دخلت فيها الثقافة الأوروبية منذ القرن الخامس عشر عبر أحداث تاريخية كبرى، كغزو نابليون لمصر والثورة الفرنسية كأحداث تقنية واختراعات واكتشاف القارة الأمريكية وما صاحبها من أحداث تقنية وفلسفية متعددة "، وفي الإطار ذاته يصفها بالقول هي " الانتقال من بنية فكرية إلى أخرى ؛ انها خروج من المغلق إلى المنفتح ، ومن المتناهي إلى اللامتناهي" كما يصفها على أنها "مجموع التشكيلات الفكرية والسلوكية ودعامتها المؤسسية المرتبطة بظهور المجتمع العصري"[7].

ويوجز محمد الشيخ تعددية أوجه مفهوم الحداثة لدى سبيلا بالآتي[8]:

---

[2] محمد سبيلا ، الحداثة وما بعد الحداثة، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2007، ص63.

[3] المصدر نفسه، ص20.

[4] نقلاً عن : فارح مسرحي، الحداثة في فكر محمد اركون، ط1، (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت) (منشورات الاختلاف، الجزائر)، 2006، ص22.

[5] محمد سبيلا ، للسياسة بالسياسة : في التشريح السياسي، ط2، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء، 2010، ص20.

[6] محمد سبيلا ، مدارات الحداثة ، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ، 2009، ص123.

[7] محمد الشيخ ، جاذبية الحداثة ومقاومة التقليد: مطارحات في الفكر الفلسفي المغربي المعاصر، ط1، (مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد)(دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت)، 2005، ص256. للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد سبيلا، في الشرط الفلسفي المعاصر، ط1، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007، ص69-70.

[8] محمد الشيخ ، مصدر سبق ذكره ، ص259.

1. التعددية التداولية: بمعنى تعددية أنحاء "تداول" المفهوم حسب مجالات وسياقات اللغات المتداولة، إذ يعني مفهوم الحداثة في المجال التداولي العربي "الآنية والراهنية والجدة"، في حين تم الاستعاضة عن صيغة الاسم "الحداثة" في المجال التداولي الانجلوسكسوني بصيغة الفعل "التحديث"، أما في المجال التداولي الالماني والفرنسي فأنه يبحث في المعنى الفكري والفلسفي العميق لمفهوم الحداثة.
2. التعددية الطبوغرافية[*] : بمعنى ان للحداثة مستويات عدة ودرجات كثيرة وليس مستوىً واحد أو درجةً واحدة ؛ أيّ انها "حداثات" ؛ أو هي "حداثة متعددة الابعاد"، ويؤكد سبيلا على ضرورة فهم الحداثة في أبعادها ومستوياتها ودرجاتها كافة.

ب – المفاهيم ذات الصلة بالحداثة : هناك الكثير من المفاهيم التي ترتبط بالحداثة لدى سبيلا ، ومن أبرز هذه المفاهيم:

أولاً – التحديث : ظهر مفهوم التحديث في الأدبيات الاجتماعية الانجلوسكسونية قرابة عام 1950 وانتشر هذا المفهوم على نطاق عالمي واسع، وقد جاء هذا الانتشار بموازاة سيرورة التحرر من الاستعمار في الدول المستعمرة ، فضلاً عن أنه جاء بموازاة طموح نخبها الجديدة بالعمل على استدراك التأخر التاريخي الذي يقبع به ، ومفهوم التحديث لدى سبيلا يقصد به "جملة عمليات إرادية متكاملة في مختلف مستويات الكل الاجتماعي[9]، كما يشير مفهوم التحديث إلى الوجه السيروري والصيروري للحداثة بالوقت نفسه[10]، إذ إن للتحديث مستويات ومجالات متعددة؛ فالتحديث في المجال الاقتصادي يتمثل في تعبئة الموارد المختلفة وتطوير القوى التقنية للإنتاج وتطوير الموارد البشرية المنتجة بغية الرفع من الإنتاجية ومردودية العمل، أما التحديث في المجال السياسي يتمثل في إقامة سلطة سياسية قوية تتمحور حول نخبة سياسية قائمة على الهوية الوطنية الجامعة، فضلاً عن إشراك اكثر عدد من المواطنين في العملية السياسية وإعطائهم حق المواطنة التي تؤهلهم للاشتراك في الحياة السياسية العامة ، في حين ان التحديث في المجال الاجتماعي يتمثل في إقامة نمط عيش حديث قوامه العمران الحضري وشيوع التعليم العام، أما التحديث في المجال القانوني فانه يتمثل في الانتقال من حكم العادات والتقاليد إلى حكم المؤسسات[11].

---

[*] الطبوغرافية : تعني رسم الارض" المكان " ؛ أو التمثيل البياني للتضاريس .

[9] محمد سبيلا ، زمن العولمة : فيما وراء دوائر الوهم ، ط1 ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، 2007، ص105.

[10] محمد سبيلا ، دفاعاً عن العقل والحداثة ، ط1 ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، 2004، ص75.

[11] محمد سبيلا، زمن العولمة : فيما وراء دوائر الوهم، مصدر سبق ذكره، ص105.

وفي الإطار ذاته فقد اتخذت النواة الفكرية لعملية التحديث طابعاً إجرائياً وظيفياً في المجالين السياسي والاقتصادي، وأطلق على هذا الطابع أسم وظيفي إجرائي سميّ بـ"التنمية"، ومن ثمَّ فقد ركز علماء الاجتماع والفلسفة الذين اشتغلوا على إشكاليتي الحداثة والتحديث على آليتين رئيستين تشكلان جوهر التحديث الاَّ وهما: التمايز والعقلنة ، فالتحديث من منظور التمايز يعني "الانتقال من المجتمع ككلية روحية منصهرة متجانسة يمثلها أو يجسدها المجتمع التقليدي إلى المجتمع كمجموعة بنيات متراكبة ومتراتبة في إطار دينامية لا متناهية من التمايز والتخصص والاستقلال النسبي للمجالات، وتكاثر الفئات الاجتماعية، وتعدد وتنوع الأدوار والمعايير والقيم والمصالح والرؤى"، في حين ان التحديث كعقلنة يعني بها محمد سبيلا "التنظيم والتنسيق وإخضاع كافة الحقول الاجتماعية للحساب والتخطيط والبرقرطة، وتسخير الوسائل خدمة للأهداف المحددة، والتوقع وتبني مناهج وطرائق منظمة في الإنتاج (الاقتصاد) والتدبير (الإدارة)، وانتشار العقلنة في كل ثنايا المجتمع و الاستقلالية النسبية للمجالات"[12]، ومن ثمَّ فإن المستويات الكبرى التي تطالها هذه العقلنة التدريجية هي الاقتصاد أولاً ثم السياسة والثقافة ، فهذه الأخيرة تقبع تحت تأثير التقنية والعلم الذي يعمل على تحويل المعرفة إلى جملة تقنيات تحكمية تسهم في تغيير الصورة التقليدية للعالم بأسره ، ولذا فإن التحديث هو الشكل الاجرائي العملي الملموس للحداثة بعدَّها صورة فكرية مجردة لا يمكن تحديدها الاَّ كعمليات إجرائية قطاعية في هذا المجال أو ذاك، فالانتقال من الحداثة إلى التحديث عند محمد سبيلا هو انتقال من الفلسفة إلى السوسيولوجيا، بتعبير آخر هو انتقال من الفكرة المجردة إلى الإجراء العملي المجسد لها ، ومن ثمَّ فإن هناك علاقة وثيقة الصلة بين الحداثة والتحديث[*][13].

ثانياً – الحداثة البعدية : الحداثة البعدية ما هي الاَّ الحداثة في مرحلتها اللاحقة ؛ أيّ الحداثة بعد أن توسعت مكتسباتها وترسخت، إذ وسعت الحداثة مفهومها للعقل ليشمل إلى جانبه أيضاً اللاعقل، فضلاً

---

[12] المصدر نفسه ، ص105- 106.

[*] العلاقة بين الحداثة والتحديث: نجد جذور هذه العلاقة بين الحداثة والتحديث لدى ماكس فيبر، الذي تحدث عن الحداثة كرؤية جديدة للعالم قوامها العقلنة ولاسيما منها عقلنة رؤى العالم ؛ أي العقلنة الفكرية والثقافية ومن ثمَّ العقلنات الجزئية المجسدة لها والتي تتمثل أساسا في العقلنة الاقتصادية والعقلنة الإدارية، وهذا الارتباط لدى ماكس فيبر يمر في عملية التحول الفكري من الحداثة إلى التحديث في مرحلة أولى، ثم من التحديث إلى التنمية في مرحلة لاحقة، فنظريات التنمية هي في الأساس تضرب بجذورها في هذا المجال الفكري الذي يمثله ماكس فيبر قبل غيره. للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد سبيلا ، دفاعاً عن العقل والحداثة، مصدر سبق ذكره، ص64-65.

[13] محمد سبيلا، دفاعاً عن العقل والحداثة ، مصدر سبق ذكره، ص64. للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد سبيلا ، الحداثة وما بعد الحداثة ، مصدر سبق ذكره، ص7.

عن توسيع مفهومها للقدرات الإنسانية لتشمل المتخيل والعقيدة والأسطورة والوهم ، وهذه المفاهيم قد استبعدتها الحداثة الناشئة تماماً من متبنياتها الفكرية، ومن ثمَّ فإن الحداثة البعدية هي حداثة أعمق وارسخ قدماً ؛ لان هذه الحداثة الظافرة أصبحت اكثر مرونة ، فضلاً عن انها اكثر قدرة على احتواء نقائضها، فهي تتجاوب بعمق مع ماهية الحداثة ذاتها بعدَّها تجاوز مستمر وقطيعة دائمة، كما في ذلك تنكراً كبيراً لذاتها ؛ فالحداثة البعدية كما يحلو لسبيلا وصفها حداثة تعمل على استبدال العقل الأداتي المسيطر بآخر مطاط ، وان تمزج القانون بالأخلاق، وأخلاق المسؤولية بأخلاق الوازع النفسي ، كما تدمج المجتمع الميكانيكي بالمجتمع العضوي ، والعلم بالأسطورة ، والعقل بالحدس والمعاصرة بالأصالة ، والحقيقة بالجمال وما شابه ذلك ، ويشدد سبيلا في هذا الإطار على ان الحداثة البعدية ما هي الاَّ "محاولة لإعادة التوازن الداخلي في الحداثة بعد ان طغى بشكل مجحف الطرف الأول المادي الآلي العقلاني الأداتي ضد الطرف الثاني الغائي الإنساني الأخلاقي والجواني"[14].

ويذهب الكثير من الباحثين لتسمية هذا التيار بـ (تيار ما بعد الحداثة) وهذا المصطلح لا يستسيغه محمد سبيلا ويفضل مصطلح الحداثة البعدية عليها، لأنه يجد في مصطلح ما بعد الحداثة مصطلح مضلل يوحي بالتجاوز والنهاية، ولذا فإن الحداثة البعدية لدى سبيلا تمثل جملة الانتقادات التي وجهت إلى الحداثة بعدَّها بنية فكرية ونظام فكري مغلق، ومن ثمَّ فان هذا التيار ينتقد وبشدة البنية الفكرية المغلقة للحداثة من حيث ارتكازها المطلق على العقل وتمجيدها المطلق للإنسان، فضلاً عن تضمينها للحتمية التاريخية وانكارها المطلق لكل من المتخيل والرمزي، ولذا فإن تيار الحداثة البعدية يمثل نقداً كبيراً لأساطير الحداثة، وهذه الأخيرة تتمثل في كل من العقلانية والتطور والتقدم وما إلى ذلك من أسس الحداثة، الاَّ إن هذا النقد لا يعني الهدم لأسس الحداثة بل هو استمرار وتطوير لمنطق الحداثة وتعميقها ، كما هي في الوقت نفسه محملة بشحنة لا أدرية وعدمية أكبر[15]، بتعبير آخر هي حداثة من دون أي مساحيق وبدون أوهام[16].

ثالثاً – ما بعد الحداثة: مصطلح خاص يشير لتحولات فكرية وجمالية حدثت في الفكر الغربي المعاصر، إذ ظهر أولاً في مجال المعمار ثم بدأ ينتشر في ربوع الثقافة الغربية الحديثة كافة ، فهذا المصطلح يوازي مصطلحات مماثلة له كالمجتمع ما بعد الصناعي والمجتمع ما بعد التكنولوجي وما شابه من

---

[14] محمد سبيلا ، دفاعاً عن العقل والحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص62-64.

[15] المصدر نفسه ، ص63-64.

[16] محمد سبيلا ، الحداثة وما بعد الحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص70.

المصطلحات، ومن ثمَّ فهو مصطلح يؤشر على تحولات جمة شهدها المجتمع والفكر الغربيين بدءً من منتصف القرن الماضي ، ولاسيما التحولات التكنولوجية المرتبطة بالثورة الصناعية الثالثة المتمثلة في الانتقال نحو مجتمع المعلومات والاعلام ومع التحولات الحديثة في العلم[17]، وهذا المفهوم ذات الصلة الوثيقة بالحداثة يجده محمد سبيلا بأنه مرتبط بالفكر الغربي المعاصر بصورةً خاصة، ولا يمكن عدَّه مرتبطاً بالفكر السياسي العربي المعاصر بأي حال من الاحوال، ومردّ ذلك لان الفكر العربي المعاصر لم تنشأ فيه حداثة تامة مكتملة لنتحدث عن مرحلة لاحقة متقدمة الاَّ وهي مرحلة " ما بعد الحداثة".

رابعاً – التقنية : عادةً ما تستخدم لفظتي الحداثة والتقنية وكأنهما مترادفتان، إذ يشار إلى الحداثة بالتقنية وإلى التقنية بالحداثة، وكأن المفهومين متماثلين كلياً ، ويشدد سبيلا في هذا الإطار على أن التقنية هي أحدى الديناميات الرئيسة للحداثة، فمارتن هيدجر مثلاً عندما يتحدث عن الحداثة فإنه يركز بالدرجة الأساس على التقنية ، الاَّ إنه لا يأخذها على إنها مجموع التقنيات والآلات والأدوات والاختراعات التقنية التي تملأ العالم الحديث وتنتشر فيه ؛ بل يقصد بها روح التقنية ، بعبارة أخرى هي الموقف التقني من العالم، وهذا الموقف هو "موقف أداتي حسابي نفعي، تصنيفي وتحكيمي"، ومن ثمَّ يؤكد سبيلا على إن التقنية هي جوهر الحداثة ، وما يميز العصر الحديث ليس انتشار التقنيات بل استشراء روح التقنية كاستعمال وتحكم[18]. ولذا فإن التقنية تسعى دوماً إلى التجديد في الآلات المعقدة بدءً من الابرة إلى المحرك البخاري وإلى الصاروخ، وكذلك تمتد إلى الأقمار الاصطناعية الدقيقة والكمبيوتر، فهي تجدد الآلات من أصغر هذه الآلات إلى اكبرها[19]، ومن ثمَّ فأن الحداثة هي الوسيط التدريجي للآليات التقنية في علاقة الإنسان بالطبيعة بشكل ضاعف قدرته على الفعل فيها وتحويلها[20]. ولذا نجد أن التقنية إنما هي من المفاهيم المرتبطة دوماً بالحداثة .

ثانياً : الأسس الفكرية للحداثة

ان الحداثة مفهوم واسع وشامل يشير إلى سيرورة تاريخية طويلة الأجل؛ سيرورة بدأت في أوروبا الغربية منذ حوالي القرن الخامس عشر الميلادي عبر عمليات مستمرة منتشرة بالتدريج في وسط أوروبا

---

[17] محمد سبيلا ، دفاعاً عن العقل والحداثة، مصدر سبق ذكره ، ص62-63.

[18] المصدر نفسه ، ص57-58. للمزيد من التفاصيل ينظر: حوار مع المفكر المغربي محمد سبيلا : في سبيل حداثة فكرية ، مصدر سبق ذكره ، ص144.

[19] محمد الشيخ ، مصدر سبق ذكره ، 260.

[20] محمد سبيلا ، الحداثة وما بعد الحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص64.

وغربها، ومن ثمَّ انتشرت إلى أنحاء أخرى من العالم ، من خلال الكشوفات الجغرافية والاستعمار والتجارة في القرون الأولى من نشأتها، وفي الوقت الحاضر عبر التقنية والاعلام ، وتتسم هذه السيرورة التاريخية بديناميتها وبأنها محملة بفكر جديد ورؤية جديدة تمارس تفكيكاً للبنى التقليدية ومن ثمَّ تدخل المجتمعات التي تداهمها في ثورة حركية مستمرة وتحولات لا نهاية لها، وما ينتج عن هذه الثورة أما تقبلاً تلقائياً أو ردود فعل مناقضة لها، على الرغم من ان هذه المجتمعات هي مندرجة في سياق عملية تحديثية طويلة مدركة لها أحيان وغير مدركة لها أحيان أخرى[21]، ومن ثمَّ فإن دينامية الحداثة هي دينامية للصراع وللتحول بين كل من النماذج المنحدرة من الماضي والنماذج المتشكلة في الأفق، والتي تطرح دوماً رهانات قاتلة على الثقافات كافة[22].

إن الحداثة على المستوى الفكري لها دلالتان كبيرتان ، أولهما دلالة تاريخية ، ومفادها ان الحداثة تشير إلى حقبة تاريخية مرجعية في أوروبا بدءً من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، وثانيهما دلالة فكرية وفلسفية ؛ إذ يشير مفهوم الحداثة إلى بنى فكرية وفلسفية سماتها بروز "النزعة الإنسانية" بمدلولها الفكري التي تعطي للإنسان قيمة مركزية رئيسة في الكون ، فضلاً عن بروز نزعة عقلانية " أداتية صارمة " ، وهذه النزعة الاخيرة تعمل على تنصيب العقل كأداة سيادة وسيطرة على مجال النظر والعمل معاً ، ويتم ذلك من خلال الانتقال من مجال العلم الحق إلى مجال العلم الإنسي في مجالي العلم والعمل معاً، ومن ميدان الاقتصاد إلى ميدان الإدارة ومن ميدان الحق إلى ميدان الدولة ، وهذا كله بدأ مع فقدان "المعنى الغيبي الماورائي وأفول القيم الكلية الشمولية"[23] ، وهذه البنية الفكرية نجد نظائر لها على مستوى ما يسمى بالحداثة الاقتصادية التي تعدَّ الرأسمالية إنموذجها الأمثل، أو بالحداثة الاجتماعية المتمثلة في تفكك أواصر القرابة التقليدية الي تربط المجتمع ، في حين ان الحداثة السياسية المتمثلة في مدلولها الرئيس على مستويي الحكم والسلطة، من خلال الانتقال من المشروعية التقليدية إلى المشروعية العصرية المرتبطة بالآليات الديمقراطية[24]، وفي الإطار نفسه يجعل محمد سبيلا خمسينيات وستينيات القرن الماضي مرتكزاً لتحرر الفكر في عالم الجنوب من التقليدية والرجعية والبدائية الجامحة للوصول إلى التقدم والتحرر والتطور، حتى لو لم يكن التعارض بين القديم والحديث وبين التقليدي

[21] محمد سبيلا ، في الشرط الفلسفي المعاصر، مصدر سبق ذكره، ص70.

[22] محمد سبيلا ، دفاعاً عن العقل والحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص53.

[23] محمد الشيخ ، مصدر سبق ذكره ، ص268.

[24] محمد سبيلا ، دفاعاً عن العقل والحداثة، مصدر سبق ذكره، ص27.

والعصري قد نضج بشكل فكري واضح ، الاَّ ان هذا التعارض قد ظل راسخاً في الإدراك والوعي العربيين ، ويشدد سبيلا على ان الوعي العربي نضج وتبلور بشأن مفهوم الحداثة بشكل أوسع مع تحرر الفكر العربي المعاصر من المقولات الماركسية الراسخة [25].

ويبرز محمد سبيلا أهمية كبرى للتحولات الفكرية المصاحبة لنشأة الحداثة من خلال التركيز على المجالات الآتية[26]:

1. المعرفة : إذ تتميز الحداثة بتطوير أساليب وطرق جديدة في المعرفة ، وقوام هذا التطور الانتقال التدريجي المتأني من المعرفة التأملية إلى المعرفة التقنية، إذ تتسم المعرفة التقليدية بكونها معرفة كيفية ذاتية وانطباعية وقيمية، ولذا فهي اقرب أنواع المعرفة إلى النمط الشعري، في حين ان المعرفة التقنية هي نمط من المعرفة قائم على اعمال العقل، ومرتكز هذه المعرفة الملاحظة والتجريب والصياغة الرياضية والتكميم ، والمثال الأبرز لهذه المعرفة هو العلم أو المعرفة العلمية التي اضحت إنموذجاً لكل معرفة.
2. الطبيعة : الحدث الفكري الرئيس في تأريخ الفكر الغربي الحديث هو نشوء ما اصطلح على تسميته "بالعصر العلمي التقني" وذلك بدءً من القرن السابع عشر، وشكَلَّ هذا العصر تحولاً رئيساً في النظر إلى الطبيعة، إذ كانت الطبيعة في العصور الوسطى قد شكلت نظاماً متكاملاً يتصف بنوع من "التناسق الازلي الذي يعكس الحكمة العلوية المبثوثة في كافة ارجاء الكون والمحققة لمظاهر كمالاته الروحية"، وقد تمثل هذا التحول المهم في تأريخ علم الطبيعة في الانتقال من مركزية الارض إلى مركزية الشمس ، وكان هذا الانتقال أساساً في التحول من العالم المغلق إلى الكون اللانهائي.
3. الزمن والتأريخ : لقد رافق هذا التطور الحاصل تحول فكري مهم قاد إلى إظهار ان كينونة التأريخ تتمثل في الصيرورة ، إذ ان تحول الكينونة إلى فعل وصيرورة قد بدأ في الطبيعة أولاً ثم مرَّ إلى التأريخ، ومن ثمَّ فإن التأريخ قد اصبح سيرورة وصيرورة في آن واحد ، بمعنى مساراً حتمياً تحكمه وتحدده عوامل ملموسة كالمناخ والحاجة الاقتصادية وما شابه ذلك ، وقد قاد ربط تطور التأريخ

[25] حوار مع المفكر المغربي محمد سبيلا : في سبل حداثة فكرية ، مصدر سبق ذكره ، ص143.

[26] محمد سبيلا ، الحداثة وما بعد الحداثة، مصدر سبق ذكره، ص8-14. للمزيد من التفاصيل ينظر: فارح مسرحي ، مصدر سبق ذكره، ص46.

بعوامل تاريخية ملموسة إلى تطور نزعة تاريخانية[*] تُرجع كل شيء إلى التأريخ لدرجة انها وصفت الحداثة بكونها "عبادة للتأريخ".

4. الإنسان : تميز فكر الحداثة بإعطاء الإنسان قيمة مركزية نظرية وعلمية ، إذ أصبحت ذاتية العقل الإنساني هي الأساس لموضوعية المجالات ، وقد تم إرجاع كل معرفة إلى الذات المفكرة أو إلى الشيء المفكر أو الكوجيتو[*].

ثالثاً : جغرافية الحداثة: للحداثة جغرافية خاصة بها تبدأ من أوروبا بعدَّها المهد الأول لها ، ومن ثمَّ تنتقل لأمم ودول بعضها منتج لها ؛ والآخر في طور الاستدراك .

1- الحداثة الأوروبية كحداثة مرجعية

ان للحداثة تأريخ وجغرافية ودينامية خاصة بها، إذ نبتت الحداثة لأول وهلة في إيطاليا وتحديداً في عصر النهضة ، هذا العصر الذي ازدهر فيه الفنون والعلوم والآداب، وأعاد الروح لفكر الاغريق وفكر روما القديمة، ومن ثمَّ بدأت هذه الدينامية في السريان إلى بلدان أوروبا الغربية، وقد واكب عصر النهضة الأوروبية عملية إصلاحية كان لها بعداً كبيراً في انتشار الحداثة، الاَّ وهي حركة الإصلاح الديني البروتستانتي .

(*) التاريخانية : يعرفها " كروتشه " حسب الاستخدام العلمي لها على انها تلك التي " تؤكد على ان الحياة والواقع هو تأريخ ولاشيء آخر غير التأريخ" ، في حين يعرفها أونغر على انها " نظرية تقول بان التأريخ هو ثمرة قوانين ثابتة لا تتغير ، لا ثمرة المشيئة الإنسانية " ، في حين يعرفها ستورس على انها " العنصر الفعال والقوي الذي يتسم بفعاليته , بدرجات متفاوتة كل الفكر المعاصر " ثم يؤكد إذا كان من الممكن الحديث عن روح العصر, فإننا يمكن أن نؤكد بكل اطمئنان ان روح عصرنا هي التاريخانية ، وفي موضع آخر يعرفها على انها " إرجاع الأفكار إلى عالم تأريخي , إلى ثقافة ؛ إلى حضارة ؛ إلى نظرة إلى العالم في ما يشبه ما سماه افلاطون بـ " الكهف", وذلك على النقيض من فكر القدماء الذي كان التفلسف بالنسبة اليهم يرادف الخروج من الكهف , فالتأريخانية هي سجن الفكر وتقييده بالزمان والمكان وبالفترة التي ينتمي اليها- على حدَّ تعبير ستورس- ", ويميز ستورس بين ثلاثة تجليات للتاريخانية هي (التاريخانية العقلانية ؛ التاريخانية التجريبية ؛ التاريخانية الوجودية) . للمزيد من التفاصيل ينظر كل من : محمد سبيلا, التأريخانية في الفكر العربي :عبد الله العروي نموذجاً ، في : عبد الإله بلقزيز وآخرون , الثقافة العربية في القرن العشرين: حصيلة أولية , ط1، مركز دارسات الوحدة العربية , بيروت, 2011, ص 538-539 ؛ روبرتو مانغابيرا أونغر ، يقظة الذات : براغماتية بلا قيود، ترجمة : ايهاب عبد الرحيم محمد ، (المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب – عالم المعرفة) ، الكويت، 2010 ، ص38 .

(*) الكوجيتو: وهو المبدأ الذي انطلق منه المفكر الفرنسي رينيه ديكارت لإثبات الحقائق بالبرهان ، وهو عبارة عن قضية منطقية ترجمتها بالعربية " أنا اشك إذا أنا موجود " . للمزيد من التفاصيل ينظر: رينيه ديكارت، محاورة ديكارت : البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعي ، ترجمة وتقديم : مجدي عبد الحافظ ، ط1، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2007 ، ص46-47 ؛ رينيه ديكارت ، حديث الطريقة ، ترجمة وشرح وتعليق : عمر الشارني، ط1 ، (المنظمة العربية للترجمة – المعهد العالي العربي للترجمة) ، بيروت ، 2008 ، ص13.

واذا كانت روما هي المهد الأول للحداثة ، فإنها بحكم طبيعتها الانتشارية السريعة، قد سرت بعد ذلك إلى دول أوروبا الغربية ولاسيما ألمانيا وفرنسا وانكلترا، ومن ثمَّ فأنه يمكن عدَّ أوروبا الغربية مسقط رأس الحداثة الغربية والتي أخذت تكتسب تدريجياً بعداً كونياً ومن ثمَّ تتخذ صورة الحداثة المرجعية.

ومن ثمَّ فإذا كان عصر النهضة المحطة الأولى لسيرورة الحداثة الأوروبية، فأن فلسفة الانوار هي المحطة الثانية والأهم ؛ وهذه الاخيرة بدأت شرارتها من فرنسا على يد كل من مونتسيكيو وفولتير والموسوعيين، وهذه الفلسفة قد اتخذت طابع حركة فكرية اجتماعية مناهضة للحلف المتين المبرم بين الاقطاع والكنيسة ، ومن ثمَّ فقد اتخذت اتجاهاً فكرياً ظلّ بمثابة المنظومة الفكرية المؤسسة للحداثة ، والتي يمكن إجمال مبادئها الرئيسة بالآتي[27]:

أ. استقلالية العقل.

ب. رفض الأحكام المسبقة ولاسيما منها تلك المبنية على أساس كونها تمتلك سلطة عليا أو تستند اليها.

ت. بلورة منظومة فكرية سياسية تقوم على مفاهيم الحرية والتسامح والمساواة.

ث. فكرة التقدم المبنية على أساس فهم تأريخي لتطور المجتمعات.

2- الحداثة الأمريكية كحداثة موازية متسارعة

ان الحداثة الأمريكية تفتقد الأرضية الصلبة التي شكلت عتلة الحداثة في أوروبا، فأمريكا لم تعرف عصوراً وسطى، كما انها لم تعرف نظاماً اقطاعياً ولا تقاليد كنسية سلطوية ، ومرَّد ذلك لحداثة نشأتها ، إذ هي لم تشهد العوائق التي اعترضت التجربة الحداثية الأوروبية ، ومن ثمَّ فهي حداثة دون نظام قديم ، بعبارة أخرى حداثة دون دولة مركزية قوية ، ودون هوية ثقافية متجانسة ما خلاّ الهوية الدينية، ودون قيود على شكل المشاركة السياسية.

وعلى الرغم من كل ما تقدم فأن الحداثة الأمريكية لم تكن بنت للحداثة الأوروبية و لا هي بلاحقة لها ، إذ ان التجربة الأمريكية تجربة فريدة ورائدة حتى بالقياس مع التجربة الأوروبية ذاتها، فمثلاً أحداث الثورة الأمريكية عام 1776 أثرت بشكل مباشر وكبير على الأفكار والاحداث في أوروبا ، إذ شجعت المطالبين بالإصلاحات السياسية الديمقراطية في أوروبا، ولذا فإن الثورة الأمريكية كانت – إلى حد ما-

[27] محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، مصدر سبق ذكره، ص44.

دافعاً للثورة الفرنسية ، فضلاً عن إن الحداثة السياسية الأوروبية تعدَّ عند الكثير من المفكرين نتاجاً لمبادئ الثورة الفرنسية ؛ وهذه الحداثة السياسية تدين بقدر كبير للحداثة الأمريكية التي يمكن عدَّها حداثة موازية للحداثة الأوروبية [28]، فضلاً عن إنها خطت فيما بعد خطوات عملاقة باتجاه الحداثة التامة وصولاً إلى ما بعد الحداثة.

3- الحداثة اليابانية أو الحداثة اللاحقة

ترجع جذور الثورة التحديثية في اليابان إلى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، إذ حدثت "ثورة المايجي[*]" التي جعلت اليابان تخطو خطواتها الأولى في طريق الحداثة، وتحول على آثرها المجتمع الياباني من مجتمع زراعي اقطاعي محافظ إلى دولة عصرية ذات صناعة حديثة متطورة ، فضلاً عن امتلاكها قوتين عسكرية واقتصادية كبرى في نهاية القرن العشرين لا تضاهيها في ذلك آنذاك سوى الولايات المتحدة الأمريكية.

والحداثة اليابانية هي حداثة فريدة من نوعها ، فهي حداثة تقنية اقتصادية بالدرجة الأولى ، أما على المستوى الثقافي فإنها قد استوعبت الكثير من معطيات الفكر الغربي وتمظهراته ولكنها عمدت في الوقت نفسه للمحافظة على قسط من الروح اليابانية داخل هذه الثقافة ، وعلى الرغم من ذلك فقد أخذ بعض الفلاسفة المعاصرين يؤكدون على إن "البوذية والكونفوشية كانتا تشكلان أساساً روحياً لليابانيين لكنهما فقدا قوتهما، إذ تلاشى مع استفحال الأوربة والأمركة ، ذلك المرتكز الروحي القديم وحل محله فراغ روحي واسع وعميق"[29]، ومن ثمَّ فأن الحداثة اليابانية على عكس الحداثة الأوروبية والأمريكية لم تشهد ثورة فكرية جذرية ، كما لم تتولد عنها فلسفات تقوم على القطيعة مع الماضي والتراث ، بقدر ما اتسمت بنوع من التجديد التكنولوجي والاقتصادي المكثف مما يعني بحدوث نوع من التمرير للحداثة الأوروبية، بما لا يسمح بحدوث انقسامات ثقافية في الوعي التقليدي، ولذا فإن الحداثة اليابانية هي نوعاً من الموائمة بين الثقافات التقليدية و الحداثة الكونية.

---

[28] المصدر نفسه ، ص45-46.

[*] ثورة المايجي : وهي سلسلة إصلاحية تحديثية حدثت في اليابان عام 1868 مع تسنم الامبراطور الشاب "ميتسوهيتو ميجي" عرش اليابان ، وسميت بثورة المايجي نظراً لما حققته من انجازات وإصلاحات. للمزيد من التفاصيل ينظر : مجموعة باحثين ، نهضة اليابان : ثورة المايجي ايشين- دراسات وأبحاث في التجربة الإنمائية اليابانية ، ط2 ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 1996، ص13-17.

[29] محمد سبيلا ، الحداثة وما بعد الحداثة ، مصدر سبق ذكره، ص46.

4- الحداثة الروسية (الحداثة الاستدراكية)

قدمت روسيا إنموذجاً آخر للحداثة ، فالثورة الروسية لم تقدم نفسها بوصفها ثورة سياسية في بلد متخلف قياساً لأوروبا ، كما انها كانت بمثابة استمراراً للثورة البرجوازية المتجمدة ، وكتعميق لها من خلال الانتقال من تحقيق الحقوق والحريات البرجوازية الشكلية إلى إنجاز الحقوق الاجتماعية التي تعمل على تحقيق المساواة فعلياً وليس صورياً ، ومن ثمَّ فقد دخلت الثورة الروسية في سيرورة ضخمة من أجل تحديث الصناعة والزراعة، ولكن هذا التحديث رافقهُ مركزية في القرار وتركيز للسلطة والثورة في يد الدولة، ويمكن القول ان الحداثة الروسية ما هي الاَّ محاولة لحرق المراحل واستدراكاً للتأخر التاريخي بشكل إرادي ومن دون تحقق الوعي التاريخي المطلوب، مما نتج عنها "حداثة مسلوقة" ؛ أي حداثة مفتقدة لشرط تطورها التاريخي الحتمي ، فضلاً عن افتقادها للمرتكزات الأساسية لتطوير ذاتي تلقائي وحتمي، وهذا الأخير لا غنى عنه في أيّ تجربة حداثوية[30].

رابعاً : مظاهر الحداثة : بعد معرفة مفهوم الحداثة ومرتكزاتها الفكرية ، ينبغي علينا لزاماً التطرق إلى مظاهر هذه الحداثة ، وهذه المظاهر متعددة أهمها :

1- المظهر الاقتصادي للحداثة : يعدَّ المظهر الاقتصادي المظهر الأول والاقوى للحداثة لدى سبيلا ، إذ يقوم على بعدين أولهما "التصنيع التدريجي" وثانيهما "عملية المكننة" ؛ مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى التقنية في الإنتاج واتساعه، ويتم وفقها الانتقال من الاقتصاد المنزلي الاكتفائي إلى الاقتصاد الإنتاجي (اقتصاد السوق)، فالتقنية والتوسع متلازمتان في هذا التحول ؛ أي التحول التدريجي من الإنتاج اليدوي إلى الإنتاج الآلي ؛ ومن الإنتاج الاكتفائي إلى الإنتاج الاستهلاكي الواسع، وبعبارة أخرى فأن القيمة الاستعمالية للمنتوجات تقل تدريجياً لحساب القيمة التبادلية، إذ يصبح التبادل الواسع قيمة اقتصادية حاسمة، ويصاحب بالضرورة هذا الانتقال تحول من الطاقة اليدوية والحيوانية إلى استخدام أوسع للطاقة المائية والهوائية ، ومن ثمَّ استخدام الطاقة الاحتراقية والكهربائية وصولاً إلى الطاقة الذرية، وهذا الانتقال من المستوى الاكتفائي الضيق إلى المستوى التبادلي المعمم يُحدث تحولاً حاسماً في الاقتصاد نفسه، بعدّه جانب من أهم جوانب الحياة الإنسانية وهو يلعب بدوره أهمية قصوى في تحديد وتوجيه جوانب الحياة الاجتماعية كافة ، فضلاً عن إنه يعدَّ عاملاً رئيساً وحاسماً في الحياة الإنسانية بصورة عامة، وهذا ما

[30] المصدر نفسه ، ص47.

يجعل من الاقتصاد عاملاً رئيساً ومظهراً مهماً من مظاهر الحداثة الفكرية[31]، فالمجتمع الحديث هو مجتمع اقتصادي بالأساس؛ أي ان الاقتصاد يؤدِ فيه دور المحدد الرئيس لمجالات الحياة كافة ، فموقع الإنسان في المجتمع الحديث تحددهُ أولاً وظيفته في العملية الاقتصادية التي هي عملية أساسية قياساً بالنسبة إلى وجود وتطور المجتمعات التي غزتها الحداثة[32]، ومن ثمَّ فإن الحداثة الاقتصادية هي عبارة عن "اندماج التقنية مع الاقتصاد" وجعلها الأداة الأولى للإنتاج، من خلال تنظيم العملية الإنتاجية بفعل التحديث الاقتصادي، ويتم ذلك من خلال توسيع السوق ؛ والذي يعدَّ ضرورة من ضرورات مرحلة الانتاج الاكتفائي الذاتي إلى مرحلة الإنتاج التسويقي الواسع، وهذه المرحلة الأخيرة تلعب فيها الشركات المتعددة الجنسيات دوراً رئيساً ومركزياً فيه ، مما يجعل الرأسمالية تشكل مثالاً للحداثة الاقتصادية النموذجية، ولذا فإن الحداثة الاقتصادية هي بمثابة "العقلنة الاقتصادية"؛ وهذه الاخيرة تقوم على ركني " الحسابية والبيروقراطية "[33].

2- المظهر السياسي للحداثة : ان جوهر الحداثة السياسية هو الانتقال من ارتكاز السلطة على مرجعية تقليدية قائمة على تقديس الماضي والتراث إلى ارتكازها على مرجعية مؤسسية أو بنيوية ، بعبارة أخرى ان جوهر الحداثة السياسية هو الانتقال من الشرعية التقليدية إلى الشرعية الحديثة (العصرية).

وهذه الحداثة السياسية لعبت دوراً رائداً ومهماً في تحديث المجتمع وعصرنة بنية السلطة فيه ، ومن ثمَّ فهي نتاج لتحول المجتمع على المجالات كافة ، وبهذا المعنى تكون الحداثة السياسية سبباً ونتيجةً في الوقت نفسه لعملية التحديث في صورتها الكلية ، فالتحديث السياسي هو نتاج عملية التحديث وعلتها في الوقت نفسه[34]، ويشدد سبيلا على ان الحداثة السياسية تتميز بتزايد مشاركة فئات واسعة من المواطنين إقليمياً ومركزياً في إبداء الرأي والإدارة ، فضلاً عن شيوع واتساع الديمقراطية الشكلية وتقنين العلاقات الاجتماعية ولو صورياً ولاسيما العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ومن ثمَّ فقد أدى زيادة اتساع دائرة النشاط الاقتصادي ومشاركة عدد اكبر من المواطنين في الحياة الاقتصادية إلى اتساع دائرة المهام من جهة ؛ وإلى نشر السلطة وتوزيع جزءً منها على فئات أوسع بالتدريج ، ولذا كان من الضروري الحفاظ

---

[31] محمد سبيلا ، مدارات الحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص124-125. للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد الشيخ، مصدر سبق ذكره ، ص260.

[32] محمد سبيلا ، مدارات الحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص125.

[33] محمد سبيلا ، الحداثة وما بعد الحداثة ، مصدر سبق ذكره، ص64. للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد الشيخ، مصدر سبق ذكره، ص260-261.

على قوة الدولة الحديثة مما أدى بدوره إلى ظهور فئة من البيروقراطية الوسطية ، ومن ثمَّ فقد اضافت الدولة الحديثة إلى السلطة مجالات جديدة لم تكن تسعها فيما قبل، فقد اتسع نطاق الدولة وتضاءل نطاق اللادولة[35]، وقد رافق الحداثة انتقال تدريجي في كيفية الهيمنة على السلطة من خلال الانتقال من الاستناد على العصبيات الدموية والعشائرية والإقليمية إلى التكتل الطبقي التدريجي ، فقد اصبح المعيار السياسي هو المصلحة لا التضامن أو الانتماءات القبلية والعرقية، مما فتح المجال أمام ظهور تنظيمات سياسية جديدة ترتكز أولاً على الأيديولوجيا والقرابة الطبقية ، وكما رافق هذا الانتقال التدريجي في آلية السلطة تنامي الصيغة الدنيوية للمجال السياسي وانتفاء القدسية من السلطة ؛ أو بعبارة أخرى فك الارتباط بين الدين والسياسة ، مما يفرض ان مظاهر الحداثة الفكرية في الميدان السياسي عدَّت الأفكار والنظريات السياسية مجرد أدلجة؛ أيَّ مجرد وجهات نظر تتعلق بفئات أو طبقات لا بعدَّها حقائق مطلقة، فضلاً عن بروز العنصر السياسي في ممارسات فكرية واجتماعية مختلفة ؛ مما أدى ذلك إلى ازدياد دائرة النشاط السياسي[36]، ومن ثمَّ فإن الحداثة السياسية تعني عقلنة السلطة والفصل بين مكوناتها واخضاعها للمراقبة وإقامتها على أساس تمثيل الشعب، فالحداثة السياسية ترتبط بمشروعية السلطة ونشوء الدولة الأمة ؛ فضلاً عن ضرورة قيام نظام ديمقراطي بالمعنى الدقيق للكلمة ، وذلك يتم من خلال ارتفاع درجة المشاركة السياسية ، وباكتساب الفرد المرعي صفة المواطن ذي الحقوق الذي اكتسب حق الفعل والتأثير في المجال السياسي من حيث انه بالدرجة الأولى فاعل سياسي لا مجرد منفعل أو مرعي[37]، ومن ثمَّ فأن الحداثة السياسية قد تجلت في نشأة الدولة الديمقراطية الحديثة ؛ أيّ الدولة التي يتم فيها التمييز بين المجال السياسي والمجال الديني[38]، ولذا فأن المظهر السياسي للحداثة – بعدّه تكنولوجيا سياسية – يرتكز على التمثيل الشعبي والتعاقد والمواطنة التامة ، فالمعيار الأساس هو النجاعة قبل أي شيء، ويتجلى هذا المعيار في تمثيلية الشعب ومراقبة المحكومين للحكام والفصل بين السلطات وما شابه ذلك ، فكلما كان المجتمع تقليدياً كلما كانت الأمور ملتبسة بين ما هو تقليدي وما هو حديث على المجالات

---

[34] محمد سبيلا ، زمن العولمة : فيما وراء دوائر الوهم ، مصدر سبق ذكره، ص51.

[35] محمد سبيلا ، مدارات الحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص126-127.

[36] محمد سبيلا ، الحداثة وما بعد الحداثة، مصدر سبق ذكره، ص64. للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد سبيلا، مدارات الحداثة، مصدر سبق ذكره، ص127.

[37] محمد الشيخ ، مصدر سبق ذكره، ص262.

[38] محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، مصدر سبق ذكره، ص64. للمزيد من التفاصيل ينظر: فارح مسرحي، مصدر سبق ذكره، ص44.

كافة بما فيها الفكر والرؤية ، في حين ان كلما كان المجتمع حديثاً تجلت ملامح الحداثة بصورة واضحة[39].

3- المظهر الاجتماعي للحداثة : يتميز المظهر الاجتماعي للحداثة بنمو الحركة الاجتماعية في مجالات الجسد الاجتماعي كافة ، فالعائلة تتقلص والعلاقات التقليدية تتفكك تدريجياً لتحل محلها روابط أخرى قائمة على الموقع الطبقي والدور الإنتاجي، فالمركز الاجتماعي للأفراد لم يعدَّ خاضعاً فقط للنسب والجاه بل يرتكز أولاً وقبل أي شيء للفاعلية الاجتماعية ، فضلاً عن ان العلاقات الاجتماعية على اختلاف أشكالها كانت تخضع فقط للأعراف ، في حين أصبحت اليوم اكثر ضبطاً وتقنيناً على الأقل في إطار المركزية التي تمارسها الدولة الحديثة ، فقد حلّ التنظيم في إيجاد الحلول محل العفوية والتلقائية ، كما حلّ القانون محل الأعراف[40]، وينجم عن هذا التحديث الاجتماعي أمران هما حدوث تراتبية جديدة في المجتمع يصبح انتظامه فيه على أساس الطبقية لا العشائرية ، فضلاً عن ظهور تقسيم جديد للعمل يرتكز على أمران هما "التخصص" و"الحركية" ، وبهذا يصبح مجتمع الحداثة مجتمعاً مفتوحاً تحكمهُ النسبية في القيم لا الاطلاقية والتعدد لا الثبات والتحررية لا التقيدية، ومن ثمَّ فان هكذا مجتمع يصبح متعلقاً بالمستقبل اكثر مما هو مُنشد إلى التراث ؛ مجتمعاً يعلو فيه قيم الفاعلية والمردودية على حساب قيم الصدق والنية، وتزدهر فيه قيم العمل والمسؤولية على حساب قيم القدرية والتواكل بين الافراد[41]، وفي المقابل يرى سبيلا ان من شأن الضبط والتقنين لمظاهر الحياة الاجتماعية كافة ، ان يُفقد هذه الحياة جوهرها وتلقائيتها وعفويتها، بل ويُدخل أحيانا عنصر التشيؤ[*]فيها[42].

4- المظهر الفكري للحداثة : تعني الحداثة الفكرية لدى سبيلا "التحول الكبير الذي حدث في رؤية العالم"، إذ ان الرؤية الحديثة للعالم تختلف تماماً عن الرؤية التقليدية من حيث إنها ترى ان العالم محكوم

---

[39] عبدالرحيم العطري، مصدر سبق ذكره .

[40] محمد سبيلا، مدارات الحداثة، مصدر سبق ذكره، ص128.

[41] محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، مصدر سبق ذكره، ص64. للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد الشيخ، مصدر سبق ذكره، ص261-262.

[*] التشيؤ : هو تحويل الظاهرة الإنسانية إلى شيء ليس له أي دور في تأكيد ذاته الإنسانية ، ولاسيما بعد ان استلبت منه جميع قدراته العقلية والإرادية فاصبح بذلك في حالة صنمية أو سلعية ، كما يؤدي التشيؤ إلى تضييع أو نفي الاعتراف المطلوب ؛ أو يؤدي إلى نسيان الاعتراف المطلوب تجاه الاخرين. للمزيد من التفاصيل ينظر كل من: الزواوي بغوره ، الاعتراف : من أجل مفهومٍ جديدٍ للعدل ، تقديم : فهمي جدعان ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 2012 ، ص195-197 ؛ أكسل هونيث ، التشيؤ : دراسة في نظرية الاعتراف ، ترجمة وتقديم : كمال بو منير ، ط1 ، مؤسسة كنوز الحكمة ، الجزائر ، 2012 ، ص31-34.

[42] محمد سبيلا ، مدارات الحداثة ، مصدر سبق ذكره، ص128.

بقوانين وعلاقات، وهذه الأخيرة يمكن التأثر فيها وتحويلها ، ولذلك أصبحت النظرة التقليدية للعالم مضادة للنظرة الحديثة له ، إذ كانت ترى ان هذه الكيانات خاضعة لغايات ؛ ويحكمها الانتظام والغائية والانسجام الابدي، في حين أولت الحداثة أهمية كبرى لمسألة العلاقات، وبهذا فأن الحداثة بصورة عامة هي ليست غائية، لأنها في الأساس تهتم بالعلاقات الداخلية للأشياء وتفاعلاتها وصراعاتها[43]. ويشدد سبيلا على ان المجتمعات الحديثة قد وفرت الركائز الملائمة للانفتاح الفكري ولإدخال النسبية في الرؤية وقبول تعدد الرؤى ، وذلك من خلال إرجاع الأفكار إلى أصولها الاجتماعية ودوافعها النفسية ، بعبارة أخرى النظر إلى الأفكار بدلالة شروطها الاجتماعية والنفسية التي أدت إلى انتاجها، بدلاً من عدَّها حقائق مطلقة[44].

5- المظهر التقني للحداثة : يشدد سبيلا على إن التقنية هي جوهر الحداثة ، وما يميز العصر الحديث ليس انتشار التقنيات بل استشراء روح التقنية كاستخدام وسيطرة وتحكم[45]، ومن ثمَّ فأن التقنية تسعى دوماً إلى التجديد والتحديث في الآلات المعقدة ، فهي تجدد الآلات كافة بغض النظر عن أشكالها أو احجامها[46]، ومن ثمَّ فأن الحداثة هي الوسيط التدريجي للآليات التقنية في علاقة الإنسان بالطبيعة بشكل "ضاعف قدرته على الفعل فيها وتحويلها"[47].

6- المظهر الأدبي للحداثة : ويطلق على هذا المظهر أيضاً وصف الحداثة الجمالية، وهي تتجسد في "اصطناع الأنماط التعبيرية الجديدة المكسرة للأنماط القديمة وللبنيات القديمة وللقافية والوزن"، وكما يطلق عليها بأنها " أنماط وأشكال التعبير والابداع الجديدة"[48].

7- المظهر القانوني للحداثة : يطلق عليها سبيلا تارة بالحداثة القانونية وتارةً أخرى بالحداثة التشريعية وتارةً ثالثة بالحداثة القانونية التشريعية، إذ تتمثل لديه في عملية "الانتقال من الأعراف والأخلاقيات إلى المواثيق والنصوص القانونية البعيدة عن الاعتبارات الأخلاقية"، بعبارة أخرى هي انتقال النظام الاجتماعي

---

(43) نقلاً عن: محمد الشيخ، مصدر سبق ذكره ، ص263.

(44) محمد سبيلا ، مدارات الحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص129.

(45) محمد سبيلا، دفاعاً عن العقل والحداثة، مصدر سبق ذكره، ص57-58. للمزيد من التفاصيل ينظر: حوار مع المفكر المغربي محمد سبيلا : في سبيل حداثة فكرية ، مصدر سبق ذكره ، ص144.

(46) محمد الشيخ، مصدر سبق ذكره ، 260.

(47) محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص64.

(48) محمد الشيخ ، مصدر سبق ذكره ، ص263.

من حالة "الاستنان" بالعرف والتقليد والعادة إلى حال العموميات التي تتخلل القوانين، ومردَّ ذلك ان المواطنين في دولة الحداثة هم متساوون أمام القانون وبالقانون، لذا يعرفها دوماً بأنها دولة الحق والقانون.

8- المظهر الأخلاقي للحداثة : ويطلق عليها أيضاً بالحداثة السلوكية ، والتي يقصد بها هي "اكتساب الفرد ثقافة سلوكية تقوم على الاعتراف بحق الآخر في الوجود وبحقه في الحياة وحقه ان يكون مختلفاً وان يدافع عن حقوقه " ، كذلك يعني بها قدسية الفرد وحريته وتحصين حقوقه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهي بذلك تكون في موقف مضاد للتصور الذي يذهب إلى إذابة الفرد تماماً في أتون الجماعة[49].

ويُرجع محمد سبيلا المظاهر المتعددة للحداثة في اختلافها وتدرجها إلى منبعين رئيسين أولهما الحداثة المادية ويقصد بها "التحسينات التي تلحق الإطار الخارجي للوجود الإنساني" ، وثانيهما الحداثة الفكرية والتي تعني "الرؤية والمناهج والمواقف الذهنية التي تهيء تعقلاً يزداد تطابقه بالتدريج مع الواقع"[50].

يتضح مما تقدم ان الحداثة التقنية لدى محمد سبيلا هي أول مظاهر الحداثة وابسطها ؛ كما هي القاعدة المادية للحداثة ، في حين يجد ان للحداثة الاقتصادية دوراً رئيساً في حياة الفرد والمجتمع في آن واحد ، أما الحداثة السياسية فيعدَّها الركن الأساس في المشروع الفكري له ، أما الحداثة الفكرية فهي ابطأ المظاهر كافة من جهة، ومن جهة ثانية فهي أصل المظاهر الحداثية ؛ من حيث هي رؤية حديثة للعالم المُعاش.

ثانيا :المقولات الفكرية للحداثة السياسية عند محمد سبيلا

إنّ الحداثة لا تبتعد عن الفلسفة السياسية ، كما أنها لا تبتعد عن الممارسة السياسية ؛ فالترابط الحاصل بين الحداثة والسياسة يُكوّن ما يعرف بالحداثة السياسية ؛ هذه الاخيرة تنشأ من تلازم مقولات الحداثة ومشروعها ، الذي يستهدف إعادة أسلوب الحياة السياسية للإنسان أولاً ومن ثمَّ للمجتمع . ولذا فأن هناك مقولات وتمظهرات للحداثة عدة ، من أبرزها لدى سبيلا المقولات الفكرية للحداثة السياسية ؛ والتي تتجلى في الديمقراطية وحقوق الإنسان والعلمانية والحرية والعولمة ، وقد قُسم المحور الى خمسة فروع

[49] المصدر نفسه ، ص264.

[50] محمد سبيلا ، مدارات الحداثة، مصدر سبق ذكره، ص129.

الأول منها (حقوق الإنسان والديمقراطية) والثاني منها (الأيديولوجيا) والثالث منها (العلمانية) والرابع منها (الحرية) والخامس منها (العولمة).

أولاً : حقوق الإنسان والديمقراطية

أ – حقوق الإنسان : حقوق الإنسان هي "مجموعة قيم سياسية واجتماعية واخلاقية" ، وهذه الحقوق هي بمثابة قيم توجه حياة المجتمعات أو حياة البشرية كلها، وهي من حيث ارتباطها بالقيم مرتبطة بالأيديولوجيا ومطبوعة بها ، الاَّ إنها ليست خاصة بأدلجة واحدة دون غيرها ؛ بل هي مجال صراع بين مجموعة الوان وخطابات أيديولوجية[51]، ومن ثمَّ فأن خطاب حقوق الإنسان ارتبط ارتباطاً مباشراً بالتحولات الفكرية الكبرى في الفكر السياسي الغربي الحديث ، والتي طالت كل تصوراتها للإنسان وللتأريخ وللطبيعة ، فضلاً عن انها طالت طبيعة المعرفة ذاتها، ويشدد سبيلا على ان هناك فكرتين رئيستين شكلتا المرتكز الأساس لفكرة حقوق الإنسان، وهما :

- فكرة الحرية : تنقسم حقوق الإنسان بشكل عام إلى "حقوق – حريات" و"حقوق– واجبات"، بمعنى انها تنقسم حقوق ليبرالية وأخرى اجتماعية، مما يعني ان معظم الحقوق المنصوص عليها في منظومة حقوق الإنسان هي في الجوهر حريات ؛ فحق التملك ما هو الاَّ حرية التملك ، وحق التعبير ليس الاَّ حرية التعبير، فضلاً عن حق الامن ليس الاَّ حرية الحركة، ولذا فإن فكرة الحرية تشكل المرتكز الأساس لمنظومة حقوق الإنسان، فهي الأساس الذي نسبته الفلسفة السياسية الحديثة للإنسان ، فالأخير هو كائن الاختيار الحر لدى ديكارت؛ وهو مملكة الحرية عند إيمانويل كانت ، فضلاً عن ان هيغل يعدَّ ان حرية التفكير والقرار هي السمة الأساس التي يتسم بها الإنسان في العصور الحديثة، فهيغل يرى ان "الحق في الحرية الذاتية يشكل النقطة الحاسمة والمركزية التي تجسد اختلاف الأزمنة الحديثة عن العصور القديمة"[52]، كما عدَّ روسو الحرية سمة رئيسة للإنسان وحقاً غير قابل للسلب، ومن ثمَّ فأن الحرية هي جوهر الحق ؛ والحق هو صيغة الحرية ، وهذه الأخيرة هي الفكرة التي تبلورت حولها الفلسفة الحديثة وعدّتها بمثابة التعريف بالإنسان الحديث وجوهراً له، ولذا فأن الحرية هي ركن أساس من أركان النزعة الإنسانية (Humanism) التي تتمحور على ثلاثة أركان الاَّ وهي: العقل والإرادة والحرية.

---

[51] محمد سبيلا ، زمن العولمة : فيما وراء دوائر الوهم، مصدر سبق ذكره ، ص49.

[52] محمد سبيلا ، في الشرط الفلسفي المعاصر، مصدر سبق ذكره ، ص12–13.

- فكرة العقد الاجتماعي

شكلت فكرة العقد الاجتماعي – على الرغم من الاختلاف على مصاديقها من الناحية التاريخية– فكرة محورية في الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، فقد كانت بمثابة ثورة فكرية في التصور الخاص بالمجتمع والسياسة في آن واحد ، وقد تبلورت هذه الفكرة في نشأتها الأولى في مدرسة الحق الطبيعي، إذ أشار غروتيوس(*) إلى إنه "يجب إقامة الدولة على الميل الطبيعي نحو العيش المأمون والمأمول عن طريق البحث عن قواعد قانونية قائمة على العقل"[53] ، وقد شكلت هذه الفكرة بداية لتحول رئيس في فكرة الشرعية ، إذ ظهرت السلطة ومن خلال المنظور التعاقدي لها ، وكأنها مؤسسة إنسانية تكتسب شرعيتها من التعاقد القائم بين الناس ؛ وهو التعاقد الذي يقوم على تنظيم الحقوق والحريات، ومن ثمَّ أصبحت المشروعية السياسية والاجتماعية مرتبطة أساساً بالذاتية الإنسانية من حيث كونها ذاتية فاعلة ومسؤولة وحرة [54].

ب – الديمقراطية

يشدد محمد سبيلا على ان الديمقراطية هي "القطعة الذهبية للحداثة السياسية" وذلك من حيث هي الآلية السياسية الحديثة التي تسمح بانتقال أساليب الحكم وعلاقة السلطة بالمواطن من إطار تقليدي إلى أسلوب حكم حديث[55]، إذ تعدَّ الديمقراطية النظام السياسي المؤسس لدولة الحق والقانون والمقنن للحريات العامة، والديمقراطية هي النظام الذي يقوم على إدخال العقلانية في مجال إدارة الشأن العام، من خلال الانتقال من سلطة الافراد إلى سلطة المؤسسات ؛ ومن سلطة العرف إلى سلطة القانون الذي يتساوى أمامه الجميع ؛ ومن اقتصار حق ممارسة السلطة بيد النخبة إلى حق الجميع في المشاركة في إدارة

(*) هوغو غروتيوس : فيلسوف وقاضي هولندي ولد عام 1583 بإحدى مدن هولندا ، أحد أهم مفكري مدرسة القانون الطبيعي ، اتقن اللاتينية واليونانية وهو في سن الثانية عشرة ، حصل على الدكتوراه في القانون من جامعة ليدن وهو في سن السادسة عشر ، عُين في عام 1603 مسجلاً تاريخياً في إحدى المواقع المهمة بهولندا ، كتب كتاباً بعنوان " الحرب والسلام " عام1625 قدم فيه شرحاً لفكرة القانون الطبيعي بوصفه مجموعة من المبادئ التي يدركها العقل والملزمة للمواطنين والحكام ؛ وله مؤلف آخر بعنوان " حقيقة الدين المسيحي " عام 1627 يعرض فيه أساس هذه المسيحية المشتركة بين الكاثوليك والبروتستانت ، توفي هوغو عام 1645. للمزيد من التفاصيل ينظر : فضل الله محمد إسماعيل وسعيد محمد عثمان ، نظرية القانون الطبيعي في الفكر السياسي الغربي ، ط1 ، مكتبة بستان المعرفة ، الاسكندرية ، 2006، ص54–55.

[53] محمد سبيلا ، في الشرط الفلسفي المعاصر، مصدر سبق ذكره، ص13.

[54] المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[55] محمد الشيخ ، مصدر سبق ذكره ، ص262–263.

الشأن العام ؛ فضلاً عن الانتقال من سلطة النيابة المؤسسية القائمة على التعاقد وعلى التمثيل المستند على الانتخاب الحر، والانتقال من مفهوم الوطن كسجن إلى مفهوم الوطن كفضاء لممارسة الحقوق والحريات ؛ زيادةً على الانتقال من الفرد المنعزل إلى المواطن صاحب الحقوق والحريات المؤسسية ؛ والانتقال من الحقوق الطبيعية إلى الحقوق المؤسسية المنصوص عليها في الدستور والقوانين الاساسية في الدولة ، ولذا فأن الديمقراطية اليوم ليست مجرد نظام للحكم؛ بل هي نظام اجتماعي سياسي معاً، ومن ثمَّ فأن الديمقراطية هي " تحول كامل وشامل للمجتمع، بحيث لا تطال القطاع السياسي وحده بل تسري على البنية النسيجية للمجتمع برمته"[56].

والديمقراطية كثقافة تقوم على مرتكزات رئيسة الاَّ وهي الحرية والتعاقد والنظام، والمصلحة العامة ترتبط بثقافة أخرى تزدهر في ضفاف الديمقراطية ، بل تشكل الأخيرة ركيزتها الأساس الاَّ وهي " ثقافة حقوق الإنسان"، إذ تجتمع الثقافتان معاً في مسلك واحد الاَّ وهو الحد من التمسك بالسلطة وتشجيع الحوار والنقاش بدلاً من العنف كحل أساس لمشكلات المجتمع كافة ، لذا فأن الثقافتين عندما تجتمعان معاً تشكلان ما يسمى بدولة القانون، وهي الدولة التي تُضبط فيها مسألة السلطة وتنزع فتيل العنف وشرارة الاستبداد.

ومن ثمَّ فأن الديمقراطية هي النظام الأمثل والأفضل المجسد للحداثة السياسية، وارتكازه الفلسفي هو حرية الفرد وحق الاختلاف في المصالح والرؤى، بعبارة أخرى ان نظام الحداثة السياسية هو "النظام الذي يتحول فيه الفرد من مجرد فرد إلى مواطن (مضمون الحقوق) ؛ أي إلى فاعل سياسي لا مجرد رقم منفعل أو مجرد مرعي في الحظيرة السياسية"[57] ، وعليه فأن الحداثة هي اختيار فكري استراتيجي، في حين ان الديمقراطية هي التجسيد السياسي لها بعدَّها " الشكل السياسي المجسد للحداثة عامةً، وللحداثة السياسية خاصة" [58]، ولذا تدخل الحداثة السياسية متمثلةً في الديمقراطية في عملية تفاعلية طويلة الأمد مع النظام الكلاسيكي القائم ، إذ هي ليست عملية سياسية جاهزة يمكن استيرادها ونقلها لنا مباشرة ؛ لأن ذلك يتطلب تحولاً ثقافياً شاملاً في المجتمع ؛ أيّ تحول في مفهوم السلطة ذاتها ، وإدراكاً جديداً للعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وإقراراً بالحقوق والحريات التي لم يكن النظام السياسي السابق يقرُ بها ، فضلاً

[56] محمد سبيلا ، زمن العولمة : فيما وراء الوهم ، مصدر سبق ذكره ، ص48.

[57] محمد سبيلا ، للسياسة بالسياسة : في التشريح السياسي، مصدر سبق ذكره ، ص22-23.

[58] محمد سبيلا ، دفاعاً عن العقل والحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص5 .

عن تأكيدها على ضرورة رفع القدسية عن المجال السياسي بعدّهُ مجالاً دنيوياً ترفع عنه القدسية والعصمة ، ويكون كل مسؤول فيه معرضاً للمساءلة والمراقبة المؤسسية لا المراقبة الأخلاقية الذاتية[59] .

ومن ثمَّ فإن حقوق الإنسان ترتبط مع الديمقراطية بأكثر من رابطة ، فهما مكونان رئيسان لفكر الحداثة السياسي ، فهما معاً ينتقلان من ارتكاز السلطة ونظام الحكم على أسس الشرعية الكلاسيكية القائمة على حماية التراث والسهر عليه ، إلى ارتكازها على معايير التمثيل الشعبي ، فضلاً عن استناد السيادة إلى الشعب واستمداد شرعية الحكم عبر هذا التمثيل الشعبي.

فحقوق الإنسان والديمقراطية يعدَّان من الأسس الرئيسة للحداثة السياسية عند سبيلا ، ويتبين ذلك الترابط الوثيق بين المفهومين من خلال جملة من النقاط الرئيسة أبرزها [60]:

1- حقوق الإنسان والديمقراطية مقولتان رئيستان تتكاملان من حيث انهما ركيزتان مركزيتان للحداثة السياسية ويعدّهما أداتان مهمتان لتحقيق التحديث السياسي ، بعبارة أخرى ان حقوق الإنسان والديمقراطية أداتان مهمتان للانتقال بأسلوب الحكم من الشرعية التقليدية إلى الشرعية التمثيلية ، فالديمقراطية يراها سبيلا على انها ثقافة سياسية حديثة متكاملة ، تتضمن تصوراً واضحاً ومحدداً للسلطة وللعلاقة بين الدولة والمجتمع ، وهذه العلاقة هي علاقة تمثيلية مبنية على التعاقد أولاً ، كما ان المؤسسات التي تتولد عن هذا التمثيل الشعبي مُعبر عنه عبر الاقتراع العلني المباشر ، وذلك بعدَّ الشعب في الرؤية الحديثة للسياسة هو مصدر السلطات كافة ومعيار شرعيتها ؛ لا بل مرجعها الأسمى .

2- ان الديمقراطية وحقوق الإنسان يستهدفان وضع حد للسلطة ، ولاسيما لدى الاتجاهات الليبرالية التي ترى المهمة الاولى لحقوق الإنسان هي الحد من سلطة الدولة، إذ ان منظومة حقوق الإنسان هي قبل كل شيء – حسب وجهة النظر الليبرالية- منظومة للحقوق الفردية التي لا يجوز لأي سلطة من السلطات ان تسلبها أو تستولي عليها ، فضلاً عن ان الآليات الديمقراطية هي في الجوهر آليات لمراقبة الأداء السياسي للسلطة وللعمل على الحد من تسلطها ، ومن ثمَّ فإن الديمقراطية وحقوق الإنسان هما منظومتان ثقافيتان يمكن ان يقومان بدور السلطة المضادة التي تعمل على الحد من تضخم السلطة وابتلاعها للمجتمع .

---

[59] محمد سبيلا ، للسياسة بالسياسة : في التشريح السياسي ، مصدر سبق ذكره ، ص23-24 .

[60] محمد سبيلا ، زمن العولمة : فيما وراء دوائر الوهم ، مصدر سبق ذكره ، ص44-47 .

ومن أهم الوسائل التي تستخدمها الديمقراطية لمراقبة السلطة التنفيذية هي الفصل بين السلطات ؛ بل استقلال السلطات بعضها عن البعض الآخر ، إذ تقوم على التوازن فيما بينها ، بحيث لا تطغى أحداها على الاخرى ، ولاسيما ان للسلطة التنفيذية ميل لابتلاع السلطات الأخرى .

3- ان الديمقراطية وحقوق الإنسان هما العنصران الرئيسان المكونان لما يوصف بدولة " الحق والقانون" ، ودولة الحق والقانون هذه ترتكز على عناصر أربعة هي :

أ- سيادة القانون بالنسبة لكل الافراد والفئات والهيئات والقطاعات بشكل لا يميز طرف على آخر ، مع ما يلزم عنه من إقرار لسلطة الدولة وهيبتها تجسيداً للإرادة العامة للمجتمع .

ب- ضمان وحماية الحقوق سواء كانت هذه الحقوق الفردية أم الجماعية وتوفير الوسائل والمؤسسات القانونية التي تضمن هذه الحقوق في حال تم المساس بها.

ت- إقرار الفصل بين السلطات فعلياً ، بعبارة أخرى توزيع السلطات بين ثلاث سلطات كبرى ما يحول دون تمركزها في سلطة دون أخرى ، مما يؤدي إلى احتكار سلطة من السلطات الثلاث لجميع السلطات ومركزيتها بشكل يسيء للشكل الديمقراطي والحقوقي للدولة ، ومن ثمَّ تصبح دولة القانون هي النقيض التام للدولة البوليسية ، ولذا فإن إقرار الفصل الفعلي بين السلطات ؛ يعني تزويد السلطتين القضائية والتشريعية بسلطات فعلية تمكن السلطة القضائية من أن تصبح حكماً ساهراً على القانون وقادراً على تطبيقه ، كما يجب تمكين السلطة التشريعية من أداء مهامها ، ومن ثمَّ التخلص من هيمنة السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية .

ث- اتخذت مقولتي الديمقراطية وحقوق الإنسان صورة يوتوبيا (طوبى) [*] في العقود الاخيرة من القرن الماضي هذه الطوبى أخذت تحتل تدريجياً محل اليوتيوبات المزدهرة في منتصف القرن العشرين

---

[*] اليوتوبيا : لفظ معرب مؤلف من لفظيين يونانيين هما " Topos " ومعناه المكان ؛ و " Ou " ومعناه ليس ، فاليوتوبيا تعني ليس في مكان أو لا مكان وهو الخيالي أو المثالي ، وتعرف الطوبى أو اليوتوبيا على انها المجتمع الخيالي الذي يحقق سعادة الإنسان الخالية من النقائص البشرية ؛ إذ يعيش الأفراد في هذا المجتمع بدون أي صراع أو تنافس بينهم وما إلى ذلك من المساوئ التي تحدث عن التفاعل البشري في كل مجتمع بشري – سواء كان ذلك في الماضي أم في الحاضر – ، ومن ثمَّ فإن الدولة الطوباوية هي الدولة المتخيلة البعيدة عن إفرازات الدولة القائمة .

للمزيد من التفاصيل ينظر كل من: جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج2، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982، ص24 ؛ عبد الوهاب المسيري و فتحي التريكي ، الحداثة وما بعد الحداثة ، ط3، (دار الفكر ، دمشق)(دار الفكر المعاصر ، بيروت) ، 2010 ، ص 368 ؛ عبد الله العروي ، مفهوم الدولة ، ط9 ، المركز الثقافي العربي ، (الدار البيضاء – بيروت) ، 2011 ، ص198 .

كالوحدة والاشتراكية ، إلاَّ أن ما يميز هاتان المقولتان بانهما قابلتان للتحقيق والتطبيق ، فهي طوبى واقعية براغماتية – على حد تعبير سبيلا – .

ثانياً : الأيديولوجيا : تعدَّ الأيديولوجيا واحدة من أهم المقولات الفكرية للحداثة السياسية عند محمد سبيلا، فسؤال الأيديولوجيا يشكل إطاراً رئيساً في المآل السياسي الراهن ، فهو في العمق سؤال الحداثة السياسية ، والأيديولوجيا وعلى الرغم من أهميتها ؛ الاَّ إنه لا يوجد تصور واضح لها ، إذ نشهد تضارب مستمر بين تصورين مختلفين لها ، الأول تصور محيطي يجعل الأدلجة تشمل النتاجات الاجتماعية كلها ، وبذلك تتأخذ الأيديولوجيا بهذا التصور صبغة الثقافة ، مما يجعلها تصبح مرادفة لها ولكن بلفظ آخر، وهذا التصور يدعوه سبيلا بالمعنى الموسع للأيديولوجيا ، في حين ان التصور الثاني يقصر مصطلح الأيديولوجيا على الظواهر السياسية والمؤسسات السياسية ، أي على " كل الأفكار والتصورات المتعلقة بالحكم والسلطة وتوجيه المجتمع " ، ومن المؤكد أن اغلب استعمالات مفهوم الأيديولوجيا يدور في هذا الفلك السياسي[61]، ووفقاً لهذين التصورين يعرف سبيلا الأيديولوجيا على إنها " مجموعة الأفكار والقيم والتصورات التي يحملها شخص أو هيئة ، والتي تتعلق بالمجتمع والتأريخ " ، كما يعرفها على إنها " مجموعة التمثلات الاجتماعية والقيم والتوجيهات التي يُكونها المجتمع أو النظام عن ذاته بهدف تأطير الأفراد وضبطهم إجتماعياً وجعلهم يتصرفون ويسلكون في تلاؤم معه ومع أهدافه"[62] .

ومن ثمَّ فان الأيديولوجيا لدى سبيلا هي ظاهرة كلية تعني في السياسة كل تفكير خادع ومضلل ، وفي الاجتماع هي مجموعة الأفكار والقيم والمُثل التي تتبناها جماعة ما لتحدد لها رؤيتها للواقع الاجتماعي وللتأريخ ، وفي الإبستمولوجيا[*] تعني المعرفة الظاهرة السطحية[63] .

---

[61] محمد سبيلا ، الأيديولوجيا : نحو نظرة تكاملية ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، (الدار البيضاء– بيروت)، 1992 ، ص7.

[62] المصدر نفسه ، ص32 وص69.

[*] الابستمولوجيا : فرع في الفلسفة يبحث في أصل المعرفة وطبيعتها ومداها ومدارسها المختلفة ، فالتجريبيون يردّون المعرفة إلى الحواس والعقليون يؤكدون إن بعض المبادئ مصدرها العقل لا التجربة الحسية ، أما طبيعة المعرفة فيعترف الواقعيون بأن موضوعها مستقل عن الذات العارفة ، ويؤكد المثاليون ان ذلك الموضوع عقلي في طبيعته لان الذات لا تدرك الاَّ أفكاراً ، وقد ذهب بعض المعاصرين إلى القول أن الابستمولوجيا تبحث في الأمور المتعلقة بفلسفة العلوم وبمبادئها الأولى . للمزيد من التفاصيل ينظر: عبد الوهاب الكيالي وآخرون ، موسوعة السياسة ، المجلد الأول ، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1993 ، ص26– 27 .

[63] محمد سبيلا ، للسياسة بالسياسة : في التشريح السياسي ، مصدر سبق ذكره ، ص28. للمزيد من التفاصيل ينظر : عبد الله المطيري ، البعد الأيديولوجي للفلسفة ، جريدة الرياض ، العدد(14745) ، 2008/9/6 ، ص17.

وفي سياق متصل يشدد سبيلا على إن الإيديولوجيا تؤدي في المجال السياسي وظيفتين رئيستين نظرية وعملية ، إذ هي ليست نظرية في المعرفة ، كما هي لا تهمها الحقائق والمعارف الاَّ من حيث توظيفها لخدمة سلطة فرد أو هيئة، فهي لا تستهدف مطلقاً تقديم معارف بريئة للمنضوين لها؛ بقدر ما يهمها تحشيدهم وتعبئتهم بالحقائق والمعلومات ليتحركوا في المجال المطلوب منهم ولينجزوا الأهداف المحددة لهم ، ولذا فان ارتباط الأدلجة بالأهداف العملية ، وتسخيرها للمعطيات النظرية كافة يجعلها تضطلع بالوظائف الآتية[64] :

1- الاستقطاب : إن جذب أكبر قدر من الناشطين السياسيين المتواجدين في المجال السياسي بإقناعهم أن هذه الأدلجة هي التعبير الحقيقي عن وضعهم الاجتماعي وعن انتمائهم وأفكارهم، وهي الاقرب إلى مصلحتهم ، كما تقوم بتزويدهم بقناعات فكرية تحدد لهم هويتهم السياسية والاجتماعية والطبقية، كما إنها تحدد لهم الأهداف التي يجب عليهم ان يناضلوا من أجلها .

2- التمييز: التمييز بين الانصار والخصوم؛ بين الاصدقاء والاعداء، فإذا كان الاستقطاب هو لف الأفراد والجماعات حول رموز معينة، فإن حشد الانصار يقتضي أولاً التمييز بينهم وبين الأغيار، والآلية المستخدمة في عملية التمييز هي آلية تمجيد الذات والاختيارات الخاصة ، وإضفاء صبغة مثالية على الأنا والنحن، وفي الوقت نفسه التقليل من قيمة الآخر وإضفاء صبغة شيطانية عليه، وهذه الآلية الثنائية هي التي تنسب الخير والفضل كله للذات والشر والسوء كله للآخر ، وهذه الآلية دارجة في الأيديولوجيات كافة إن لم تكن هي العمود الفقري للتفكير الأيديولوجي.

3- التعبئة وتعيين الأهداف : تسعى كل أيديولوجيا إلى الإقناع وتكييف خطابها وفقاً لدرجة الانتماء والانضواء ، فالخطاب الموجه للانصار غير الخطاب الموجه للمتعاطفين ، كما هو غير الخطاب الموجه للخصوم ، بتعبير آخر هو خطاب ملتبس متعدد الدلالات و الإيحاءات و الإحالات ، فهو خطاب يجمع بين " المفهوم والمدلول ؛ بين الاستدلال العقلي والشحن الوجداني ؛ بين العلم والأسطورة ، بهدف شحن الأذهان وتعبئة النفوس استعداداً للعمل ، أي للانخراط في النضال العملي من أجل تطبيق الاهداف "، وبما أن الأدلجة هي – في الغالب– فكر في خدمة سلطة[*] صاعدة أو

---

[64] محمد سبيلا ، الأيديولوجيا : نحو نظرة تكاملية ، مصدر سبق ذكره ، ص64-67. للمزيد من التفاصيل ينظر : محمد سبيلا ، مدارات الحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص228.

[*] تكاد الأيديولوجيا في الاستخدام اليومي أن تكون مرادفة للسياسة وللسلطة ، وكأن الأدلجة هي مضمون السياسة وكأن السياسة هي التطبيق العلمي للأدلجة ، ويرى سبيلا ان هذا الترادف لا يخلو من صواب ، لان الأيديولوجيا مرتبطة ارتباطاً قوياً بالسياسة والسلطة ،

قائمة أو آيلة للزوال ، فإن من المنتظر من انصارها الاَّ يكتفوا بالإقناع النظري فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى أن ينخرطوا في الممارسة العملية انتصاراً للأيديولوجيا وتطبيقاً لها ، فهي تحدد لهم الأهداف الرئيسة التي يتعين التضحية من أجل نصرتها ، والتي تشكل الجانب اليوتوبي في كل أدلجة ، وهذه الاخيرة ليست فقط ذات بعد محافظ ؛ بل هي ايضاً ذات بعد تغييري وتجديدي .

4- الاختزال والتبسيط : تقتضي عملية تعبئة الجماهير وتحشيدها ، وغلبة الأهداف العملية على الأهداف والمعايير النظرية في الأيديولوجيا ، ضرورة القيام بتقديم وصفات فكرية جاهزة للناشطين الأيديولوجيين ، إذ ليست غاية الأدلجة طرح الإشكاليات وتقديم الاسئلة كما هو حال الفلسفة ، بل على العكس من ذلك فإن هدفها الأساس هو تقديم أجوبة جاهزة وعرض حلول ناجعة .

5- الانتقاء : أن الحكم الأيديولوجي في جوهره حكم قيمة لا حكم واقع ، أو هو حكم واقع متلون ، فإنه بذلك يتضمن حكماً متحيزاً مع أو ضد ، فهو متحيز مع ما يبرز الفضائل والمزايا وهو ضد كل ما يبرز النقائص والسلبيات ، فالأدلوجة ترتكز على الوقائع الإيجابية التي هي في مصلحتها وتتعامى عن الوقائع السلبية التي لا تؤمن بها ، فهي تقوم بعملية إظهار من جهة وإخفاء من جهة أخرى ، إظهار لما يؤيدها ويظهر مزاياها ؛ وإخفاء لما يكذبها وينتقص منها ، ومن ثمَّ فان الانتقاء هو فرز الوقائع إلى إيجابية وسلبية بإخفاء الاخيرة وإظهار الأولى ، وبذلك فإن الانتقاء يمكن أن يعم كآلية أيديولوجية ليشمل إدراك الوقائع وغربلة الأحداث ، فضلاً عن التمييز بين الأفراد.

والانتقاء والإخفاء يسريان على الغير كما يسريان على الذات ، فالأيديولوجيا تخفي نواياها البعيدة ، كما تخفي على الذات الأيديولوجية كل ما من شأنه ان يسبب لها قلقاً أو شكاً أو حيرة ، فهي غالباً ما تعمد إلى تجميل اختياراتها وتقبيح الاختيارات المضادة .

6- التبرير: يعدَّ التبرير من الوظائف الرئيسة لأية أيديولوجيا ، فتقديم تبريرات لممارسات المنضوين ولمواقفهم واختياراتهم هي من الوظائف الأساسية لأي أيديولوجيا ، وإنتاج التبريرات ليس بالضرورة تعني تقديم تفسيرات وتحليلات؛ بل تقديم تأويلات للوضع تجعل الممارسات والاختيارات مستساغة

فكل سياسة وكل سلطة تتضمن أيديولوجيا وتصادر عليها صراحة أو ضمناً ، كما أن كل أيديولوجيا تتضمن نظرة للمجال السياسي وتستهدف في النهاية الوصول إلى السلطة أو المشاركة فيها ، والأيديولوجيات التي تدعي أنها لا تطمح للوصول إلى السلطة إنما تفعل ذلك من باب التمويه أو الإخفاء أو التستر ، لانه لا وجود لأيديولوجيا تحشد الناس من أجل لاشيء أو من أجل المعرفة فقط ، لان الأيديولوجيا في جوهرها فكر عملي تعبوي يهدف إما إلى الحفاظ على العالم الاجتماعي كما هو أو إلى تغييره نحو الافضل ، فضلاً عن كون الأيديولوجيا فكراً عملياً فهي أيضا فكر في خدمة سلطة، سواء كانت هذه السلطة قائمة أو في الطريق إلى الاستيلاء عليها أو آيلة للسقوط . للمزيد من التفاصيل ينظر : محمد سبيلا ، الأيديولوجيا : نحو نظرة تكاملية ، مصدر سبق ذكره ، ص57.

ومشروعة، وآلية إنتاج هذه التبريرات لا تنتهي، فهي موجهة للمنضوين والمتعاطفين ، كما هي موجهة للآخرين ايضاً .

وفي إطار متصل يشدد سبيلا على إن الحداثة إذا كانت تعني من جملة ما تعنيه في المجال السياسي الفصل بين السياسة والمقدس ، فإن مفهوم الأيديولوجيا من حيث هو" إرجاع للأفكار والقيم والتصورات المتعلقة بالواقع الاجتماعي ، وبتصور المجتمع، وبمعنى التأريخ واتجاهه إلى محددات وحتميات اجتماعية عينية كالطبقة أو المهنة أو إلى مصالح فئوية أو طبقية أو إلى تضليل فكري تمارسه الطبقات والفئات الاجتماعية على بعضها تحت طائلة الصراع ، فالحداثة في موضوع الأيديولوجيا هي إرجاع القيم والأفكار إلى الواقع الاجتماعي وإلى المحددات التاريخية ، لان التاريخانية هي جوهر الحداثة الفكرية"[65]، وهو في هذا الرأي يقترب من رؤية عبد الله العروي[*]الذي يذهب لجعل التاريخانية الأيديولوجيا الوحيدة لتجاوز حالة التأخر العربي الذي تعيشه البلدان العربية[66]، ومن ثمَّ فإنه يعدَّها المرتكز الرئيس للحداثة الفكرية العربية .

ثالثاً: العلمانية

تتمثل الدينامية الرئيسة للحداثة السياسية في تمفصل السياسي والديني ، أو لنقلْ بداية استقلال المجال السياسي عن المجال الديني ، ويؤكد سبيلا في هذا الإطار على انه عادةً ما يتم ربط العلمانية مع هيمنة الدين ورجاله على السياسة والدولة ، وذلك الربط يتم من طريقين أما من طريق التحالف مع الاقطاع – كما أكدت ذلك النظرية الماركسية التي ركزت على التحالف بين السياسة من جهة ورجال الدين من جهة أخرى– ، أو من خلال الصراع بين السياسة والرهبان ؛ إذ أدت الهيمنة القسرية لرجال الدين على مجالات السلطة بصورة عامة والسلطة السياسية بصورة خاصة في أوروبا إلى تبلور "

---

[65] محمد سبيلا ، الأيديولوجيا : نحو نظرة تكاملية ، مصدر سبق ذكره ، ص48. للمزيد من التفاصيل ينظر : عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا ، ط8 ، المركز الثقافي العربي ، (الدار البيضاء – بيروت) ، 2012، ص5-6.

[*]عبد الله العروي : مفكر ومؤرخ مغربي ولد عام 1933 في مدينة ازمور المغربية ، درس الفلسفة والتأريخ في فرنسا ، ومارس التدريس في بلاده وفي فرنسا وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، صدر له الكثير من المؤلفات أهمها (الأيديولوجية العربية المعاصرة ؛ العرب والفكر التاريخي ؛ مفهوم الحرية ؛ مفهوم الدولة ؛ مفهوم العقل ؛ مفهوم التأريخ ؛ مفهوم الأيديولوجيا) وغيرها الكثير من المؤلفات المهمة . للمزيد من التفاصيل ينظر : السيد ولد أباه ، أعلام الفكر العربي : مدخل إلى خارطة الفكر العربي الراهنة ، ط2 ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت ، 2013 ، ص100.

[66] عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، ط1، دار الحقيقة، بيروت ، 1973، ص126.

ديناميات مقاومة " وتمرد على المهيمنين على السلطة الروحية وحراس المقدس ، وانتهى هذا الصراع إلى تضييق دور الدين ورجاله في صياغة وتوجيه الحياة السياسية الغربية[67] .

وقد ساعدت التجارب الثورية في الدول السائرة على طريق النمو من توسيع هذه الفكرة التي ترتكز على الحد من هيمنة العقيدة الدينية على السياسة ، لتتوسع لتشمل لا فقط العقيدة الدينية ؛ بل العقائد كافة بما فيها العقائد السياسية ، وقد سخرت هذه الأيديولوجيا السياسية كعقيدة دنيوية ذات توجه ديني من جهة ؛ ومن جهة أخرى فأنها تضفي قدسية على المشروعية السياسية والفكرية للنظام السياسي ولاسيما في بلدان الاتحاد السوفيتي سابقاً وكوبا ومصر [68].

ومن ثمَّ فقد توسع مفهوم استقلال المجال السياسي عن المجال الديني على ضوء تجربة النمو الحاصلة في عالم الجنوب ولاسيما بعد الاستقلال ، ليشمل استقلال الجانب السياسي عن العقائد الدينية ، ومن ثمَّ يمتد ليشمل الحدّ من هيمنة العقائد الأيديولوجية ذاتها .

رابعاً : الحرية: الحداثة مرتبطة اولاً وقبل كل شيء بالحرية ؛ أي بحرية الفرد وبمسؤوليته ومن ثمَّ ضمان هذه الحرية من خلال إعطاء الفرد والفئات الاجتماعية كالمرأة والطفل الحريات كافة ، فالحداثة في الفكر السياسي الغربي ترتبط بازدياد الحرية وقيمها في داخل المجتمع .

فضلاً عن ارتباط الحداثة بفكرة الحرية ، هناك ارتباط بين الحداثة وفاعلية الفرد ومسؤوليته ، فالحداثة المرجعية – أو كما يذهب البعض لوصفها بالحداثة النموذجية – تقوم على أساس إعطاء المسؤولية والفاعلية للأفراد ، فالفرد كما يذهب سبيلا لم يعدَّ اليوم خاضعاً للتقليد ، فتحرير الفرد من ضغوط التقليد والتراث ومن المسلمات ومن قوة الماضي ، انما يعدَّه سبيلا ركيزة رئيسة في طريق الحداثة والتحديث، فالحداثة لا تقوم بعملية نسخ للماضي ولا تجاربه القديمة كما لا تخضع لحكم الاموات ؛ بل تقوم على الفرد الحر المسؤول صاحب الثقة بنفسه – أي الشخص المسؤول عن إدارة الشأن العام – ، وهذا الفرد الذي يقوم بإعطاء صوته ويراقب ومن ثمَّ يتحكم بشكل أو بأخر بالسلطة السياسية أو لنقل بالفعل السياسي ، ولذا فإن الحرية هي أولوية الفرد قبل أي شيء[69].

---

[67] محمد سبيلا ، للسياسة بالسياسة : في التشريح السياسي ، مصدر سبق ذكره ، ص20–21 .

[68] المصدر نفسه ، ص21 .

[69] محمد سبيلاً ، دفاعاً عن العقل والحداثة ، مصدر سبق ذكره ، ص106 .

خامساً _ العولمة : يعدَّ محمد سبيلا العولمة بمثابة الذروة القصوى للحداثة ، أو بعبارة أخرى هي الحداثة بأشد شراستها وقوتها ، كما هي تمثل ذروة هيمنتها الاقتصادية والمالية والتكنولوجية ، لذا يشدد سبيلا على ان هذه الحداثة التي تمثلها العولمة ، تقوم باستثارة الشعوب ، مما ينجم عن هذه الاستثارة ردود افعال مضادة ، فضلاً عن توليد استراتيجيات دفاعية قوية ، ومرَّد ذلك لان الحداثة تشحذ آلياتها واستراتيجيتها كافة في مواجهة التراث والتقليد ، وفي المقابل يظهر التقليد من جديد ويستعيد ذاكرته وعافيته في مجتمعنا ، ويحاول بشتى الطرق الدفاع عن نفسه ، ومن ثمَّ تظهر هذه الثنائية المفارقة التي نجدها حاضرة بقوة في الفكر السياسي العربي المعاصر ، الاَّ وهي ثنائية التراث والحداثة[70]، ويؤكد سبيلا في هذا الإطار على ان الحداثة كلما كانت فاعلة ونشطة ومفككة للمجتمعات التقليدية بصورة عامة ولثقافة هذه المجتمعات بصورة خاصة ، كلما فاقت هذه المجتمعات وأظهرت ردود فعل رافضة ومتطرفة .

ويدلل سبيلا على هذه الظاهرة بأن المجتمعات العربية والاسلامية أو حتى مجتمعات العالم الثالث – وان اختلفنا معه في هذه التسمية ؛ لأن هذا التقسيم قد ولى واصبح من الماضي ومن الافضل تسميتها بعالم الجنوب – كانت من أوائل القرن الماضي إلى حدود الستينيات والسبعينيات تتطلع بشدة إلى الحداثة ، وكان الفكر المسيطر هو التوفيق بين التقليد والمعاصرة ، أو بتعبير آخر محاولة اقتباس الحضارة الغربية والسير على طريقها ، وفي هذا السياق يندرج فكر محمد عبده الاصلاحي ، فضلاً عن المحاولات التوفيقية كافة في الفكر السياسي العربي الحديث ، ومرّد ذلك حسب محمد سبيلا ان الحداثة لم تظهر شراستها في تلك المرحلة ولم تنضج في الوعي العربي التقليدي ، لكنها فيما بعد تقدمت وظهرت بشكل اكثر حدة وشراسة .

وفي المقابل ظهرت ردود فعل عن هذه الحداثة تتمثل في ابرز صورها من خلال الاسلام السياسي أو الرفض الثقافي للآخر، وهذه المواقف الراديكالية التي ظهرت كردّ فعل للحداثة لم تكن معروفة من قبل ؛ وهي بمثابة وعي متأخر زمنياً تجاه مفهوم الحداثة الذي ازداد شراسةً في القطع مع الآخر ورفضه[71].

يتضح مما تقدم إن الحداثة ظاهرة إنسانية تعتمد على العقل الإنساني اعتماداً مطلقاً ، إذ هي رؤية تحديثية تنظر إلى المجتمع نظرة مغايرة ؛ فالحداثة هي رؤية مختلفة للفكر والثقافة والإنسان متميزة تماماً

---

[70] المصدر نفسه ، ص138 .

[71] المصدر نفسه ، ص138–139 .

عن الرؤى السابقة ، ومن ثمَّ فإننا نجد انفسنا أمام نظرية شاملة للحداثة ؛ تعبر وبشدة عن رغبة سبيلا ؛ ورغبة النخب الفكرية العربية المعاصرة في الخروج من أسر التقليد والفكر التقليدي والانتقال إلى ثقافة الحداثة ؛ التي هي ثقافة العصر الحديث، وهذا لا يتم الاَّ من خلال تبني مشروع الحداثة تبنياً تاماً بعدَّه الوسيلة الوحيدة للخلاص من التخلف العربي وانجاز التحديث المنشود في البلدان العربية.

ولذا نجد إنَّ الحداثة لدى محمد سبيلا هي الإشكالية المركزية لمشروعه الفكري المنتمي لمجال الفكر السياسي العربي المعاصر، والتي يطرحها الواقع المجتمعي ؛ فهي استغرقته كثيراً وأشتغل على مفاصلها كافة وعمل على تفكيكها من خلال استخدامه للعقل النقدي ، وصولاً إلى ضرورة تبنيها تبنياً تاماً كحل للخروج من الواقع العربي المُعاش.